

سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

حِينَ يَنْشَقُّ السِّتْرُ وَيَلْقَى الْإِنْسَانُ مَا عَمِلَ

تَأْلِيف: رَدَاد السَّلَامِي

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

حِينَ يَنْشَقُّ السِّتْرُ وَيَلْقَى الْإِنْسَانُ مَا عَمِلَ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

حين يفتح القرآنُ في جدار العالم نافذةً على الحقيقة

ليست سورة الانشقاق حديثاً عن نهاية العالم فحسب، بل هي كشفٌ عن حقيقة العالم منذ بدايته؛ فما يبدو ثابتاً في أعيننا ليس ثابتاً في علم الله، وما نراه ممتداً في الزمن ليس إلا مرحلةً قصيرةً تمضي بالإنسان إلى اللقاء الذي خُلق له. السماء التي تظلُّنا بجلالها ستُنشَقُ، والأرض التي تحمل خطانا ستمدُّ، والقبور التي تحفظ أسرار الأجساد ستُتلقى ما فيها وتُتخلَّى، والإنسان الذي يكبح بين ولادةٍ وموت، وبين رغبةٍ وخيبة، وبين طاعةٍ ومعصية، لن ينتهي كدحه إلى فراغ، بل إلى ربه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

وهذه الآية هي القلب النابض في السورة كلّها؛ فمنها تنفرع المشاهد، وإليها تعود المعاني. الكون ينشق لأن الرحلة بلغت غايتها، والأرض تتخلَّى عن أثقالها لأن ساعة الكشف قد حضرت، والصحف تُعطى لأصحابها لأن الكدح الإنساني لم يكن حركةً ضائعةً في العدم، ثم تنقسم الوجوه بعد ذلك بين مستبشرين يرجعون إلى أهلهم مسروراً، ومخذولٍ يدعو ثبوراً ويصلي سعيّاً. وكأن السورة تقول للإنسان: لست عابراً مجهولاً في كونٍ أصمٍّ، ولا قطرةً ضائعةً في بحر الزمن؛ إنما أنت مخلوقٌ تسير كلُّ خطوةٍ منك إلى الله، وتُحفظ كلُّ حركةٍ من حركاتك في كتابٍ لا يغادر من وجودك شيئاً.

وسوف يقوم تدبرنا لهذه السورة على أصلٍ منهجيٍّ يحفظ للنص القرآني جلاله، وللتأمل رحابته: نبدأ من دلالة الآية في لغتها وسياقها ونظمها، ثم ننظر في إشعاعها على النفس

والحياة والمصير، من غير أن نخلها ما لا تحتمل، أو نحول التدبر إلى خيالٍ منفصلٍ عن مراد الوحي. فالقرآن لا يحتاج إلى أن نستودعه أفكارنا، وإنما نحتاج نحن إلى أن نُخلي قلوبنا من ضجيجها حتى نستقبل أفكاره؛ ولا نأتي إلى الآيات لنُحسن الكلام عنها فقط، بل لنسمح لها أن تُعيد الكلام فينا، وأن تنقلنا من قارئٍ يتأمل المشهد إلى إنسانٍ يرى نفسه واقفاً في قلبه. وستقرأ صور السورة بوصفها حقائق غيبية أخبر الله بها، لا رموزاً تُفرِّغ من معناها، غير أن الحقيقة الغيبية لا تمنع الامتداد التربوي؛ فالسماوات ستُنشق حقاً، ولكن الإيمان بانشقاقها ينبغي أن يشقَّ في القلب حجاب الغفلة، والأرض ستُلقَى ما فيها حقاً، ولكن ذلك يدعو الإنسان إلى أن يُخرج من باطنه أثقال المعاصي قبل أن تُخرج الأرض أثقال الموتى، والصحف ستُنشَر حقاً، ولكن المؤمن العاقل يقرأ صحيفة يومه الآن، ويراجع سطره قبل أن يُعطى كتابه يوم لا يملك حذفاً ولا إضافة.

تبدأ السورة بانقياد الكون، ثم تنتقل إلى كدح الإنسان، ثم تعرض مشهد الحساب وانقسام المصائر، ثم تقيم في السماء شواهد التحول المتدرِّج: الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق؛ لتقول إن الإنسان نفسه ينتقل من حالٍ إلى حال، ومن طورٍ إلى طور، حتى يستقر به المسير عند الحقيقة الأخيرة. وبعد أن تحاصره الآيات بأدلة الكون والمصير، تسأله في لهجة توقظ الفطرة: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾؛ فما الذي بقي بعد أن نطق الوجود، وشهدت الفطرة، وأنذر الوحي؟ وما العائق الذي يجعل قلباً يرى كل هذه الآيات ثم يظل واقفاً عند أبواب الإيمان لا يدخل؟

إن سورة الانشقاق قصيرةٌ في عدد آياتها، لكنها واسعةٌ بامتداد الرحلة الإنسانية كلّها؛ تبدأ من انهيار السقف الكوني، وتنتهي بوعْدٍ لا ينقطع للمؤمنين: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وبين

البداية والنهاية يقف الإنسان وحيداً أمام السؤال الذي لا يستطيع أحد أن يجيب عنه نيابةً عنه: بأي كتاب سألقى الله؟ كتاب أحمله يميني فتشرق روعي قبل وجهي، أم كتاب ألقاه من وراء ظهري بعد أن قضيت حياتي أجعل الحقيقة وراء ظهري؟

لسنا إذن أمام وصفٍ ليومٍ بعيدٍ فحسب، بل أمام ميزانٍ للخطاة الحاضرة؛ لأن القيامة في القرآن ليست خبراً مؤجلاً عن المستقبل، وإنما نورٌ يُلقى على الحاضر، فيكشف قيمة الأشياء قبل أن تنتهي، ويرى الإنسان عاقبة خطوه وهو لا يزال قادراً على أن يغير الطريق. ومن هنا ستكون رحلتنا في هذه السورة انتقالاً من انشقاق الكون إلى انكشاف السرية، ومن امتداد الأرض إلى انطواء العمر، ومن كدح الطريق إلى لقاء الله، ومن قراءة الكتاب المؤجلة إلى محاسبة النفس الآن؛ لعلنا نصل إلى آخر السورة وقد انشق في أرواحنا شيء من ظلمة الغفلة، وأنشق في سماء اليقين قرناً كان محجوباً بسحب الحياة.

الفصل الأول

الكون الذي يُصغي إلى أمر ربه

قال الله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾

يفتح القرآن المشهد من أعلى نقطة تقع عليها العين: السماء. تلك القبة الهائلة التي عاش الإنسان تحتها مطمئناً إلى انتظامها، ورفع بصره إليها فرأى في امتدادها معنى الثبات والجلال، يجيء اليوم الذي تنشق فيه بإذن خالقها، فتسقط من النفس آخر أوهام الدوام. إن أول ما تنهدم صورته يوم القيامة ليس حجراً من الأرض، بل المعنى الذي احتفى به الإنسان طويلاً: أن هذا النظام سيظل كما هو، وأن غداً سيكون شبيهاً بأمس، وأن الكون سيواصل حراسته الصامتة لأحلام البشر الصغيرة. فإذا السماء تنشق، وإذا الثبات الذي ملأ العين أعماراً يكشف عن كونه أجلاً مؤقتاً أمسكه الله بقدرته، ثم أذن له أن ينتهي.

ولا تقول الآية إن السماء انشقت فقط، بل تقول: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾؛ أي استمعت وأطاعت أمر ربها، وحق لها أن تسمع وتطيع. إن الكون في الرؤية القرآنية ليس مادةً متمردةً تتحرك خارج سلطان الله، بل خلقٌ منقادٌ لا يخرج عن تدبيره؛ السماء على سعتها مأمورة، والأرض على امتدادها مأمورة، والجبال والنجوم والبحار كلها تجري في قبضة الأمر الإلهي. وحده الإنسان مُنح مساحة الاختيار، فكان أضعف المخلوقات جسداً

وأكثرها جرأةً على العصيان؛ يطيع الكونُ كُلُّه، ثم يقف هذا الكائن الصغير في زاويةٍ من الأرض كأن إرادته تستطيع أن تُنشئ مملكةً خارج ملك الله.

وما أعمق لفظ ﴿أَذِنْتُ﴾؛ ففيه إصغاءٌ كامل، كأن السماء بكل نجومها ومجراتها كانت تنتظر الكلمة التي تنهي مهمتها، فلما جاء أمر ربها لم تتأخر، ولم تسأل، ولم تثبث بالصورة التي عاشت عليها دهوراً. إنها عبودية الكون الخالصة: أن يبقى على الحال التي أَرادها الله ما دام الله يريدُها، ثم يفارقها ساعة يشاء الله، فلا تكون قيمته في بقاءه ولا في زواله، بل في موافقته لأمر خالقه.

وهنا يتسلل السؤال إلى قلب الإنسان: إذا كانت السماء العظيمة تصغي إلى ربها، فكيف يضيق القلب الصغير عن سماع أمره؟ وإذا كانت تنشق حين يؤذن لها بالانشقاق، فلماذا يعجز الإنسان عن أن يشق قشرة عاداته حين يدعوه الله إلى التوبة؟ وإذا كانت الأجرام التي لا تُحصى لا تتأخر عن مواقعها، فمن أين جاء هذا الوهم الذي يجعل المرء يظن أن حريته لا تكتمل إلا بخالفة خالقه؟ إن العصيان ليس دليل قوة الإرادة، بل دليل اختلالها؛ لأن الإرادة تبلغ كمالها حين تعرف الحق وتختاره، لا حين تعرف النور ثم تعتمد السير إلى الظلام.

ثم تهبط الصورة من السماء إلى الأرض: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾. الأرض التي عرفها الإنسان محدودةً بالجبال والمنخفضات، مطويةً بالتضاريس والمسافات، تُبسّط يومئذٍ وتمُدُّ؛ فلا يبقى سائرٌ يحجب، ولا مرتفعٌ يختبئ وراءه أحد. إن أرض القيامة تناسب حقيقة القيامة: فضاءً مكشوفٌ لا مكان فيه للاختباء، كما أن السرائر يومئذٍ مكشوفةٌ لا موضع فيها للكذب. في الدنيا تصنع التضاريس المادية والمعنوية مساحاتٍ للاختفاء؛ يختبئ الجسد خلف

الجدار، ويحتجى القصد خلف العبارة، ويحتجى النفاق خلف المظهر، أما هناك فتُمد الأرض كما تُمد صفحة الحساب، ويقف الإنسان ظاهراً بكل ما كان يظنه مستوراً.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾؛ كلمات قليلة، ولكنها تحمل تاريخ الموت البشري كله. كل جسدٍ غاب في التراب، وكل عظمٍ تفتت، وكل اسمٍ محاه النسيان، وكل ملكٍ وعبد، وكل ظالمٍ ومظلوم، وكل من شيعه الناس ثم عادوا وتركوه وحيداً؛ تحفظهم الأرض بأمر الله، حتى إذا جاءت الساعة أَلْقَتْ ما فيها ولم تُبق في جوفها أحداً. ليست القبور أبواباً إلى العدم، بل مستودعاتٌ مؤقتة، وليست الأرض قادرةً على أن تبتلع الإنسان إلى الأبد؛ إنها تحفظ الوديعة حتى يأتي أمر صاحبها.

أما قوله: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ فيوحي بأنها أفرغت باطنها إفراغاً كاملاً، وتجردت مما حملته طويلاً. وكأن الأرض التي تنازع الناس على امتلاك بقاعها، وسفكوا الدماء من أجل حدودها، وكتبوا أسماءهم على حجارها، ستبترأ يوماً من جميع دعاوى الملك، وتُلقي الملوك والمماليك معاً على سطحها، ثم تقف هي الأخرى عابدةً خاضعةً لأمر الله. كم هو مدهش أن يقتتل الإنسان على شبرٍ من أرضٍ ستلفظه يوماً من قبره، ثم تقف معه في ساحة الحساب! وكم هو بائس أن يبيع المرء آخرته ليملك جزءاً من دنيا لا تملكه هي نفسها، بل تنتظر أمر الله في بقائها وزوالها!

ويكرر العبارة: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، لأن السماء والأرض، على اختلاف طبيعتهما ووظيفتهما، تجتمعان في حقيقة العبودية. انشقاق السماء طاعة، وامتداد الأرض طاعة، وإخراج الموتى طاعة؛ فلا اضطراب في الكون خارج سلطان الله، ولا فوضى في مشهد

القيامة، وإن بدا للعين بالغ الهول. ما نسميه انهياراً هو في حقيقته انتقالٌ من نظامٍ أراده الله إلى نظامٍ آخر أراده، وما نراه نهايةً للعالم هو بداية ظهور الحقيقة التي من أجلها أنشئ العالم. إن السورة، قبل أن تخاطب الإنسان مباشرة، تُريه نموذج العبودية في الكون؛ كأنها تهيئه لسماع النداء الآتي: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾. لقد سمعت السماء، وسمعت الأرض، وبقي أن نعرف: هل يسمع الإنسان؟ لقد أدّى الكون مهمته ولم يخنها، فهل يؤدي الإنسان الأمانة التي حُمِّلها؟ لقد خضعت الموجودات لأمر ربها خضوعاً لا تردد فيه، فهل يخضع القلب قبل أن يأتي اليوم الذي يخضع فيه الجسد قهراً، فلا يملك تأخراً ولا فراراً؟

وهكذا لا يبدأ مشهد القيامة بالصراخ، بل بالطاعة، طاعة السماء وهي تنشق، وطاعة الأرض وهي تمتد وتلقي ما فيها. وفي هذا المعنى سكينَةٌ مهيبة وسط الفزع: فالوجود لا يسقط من يد الله لحظةً واحدة، والقيامة ليست انفلاتاً كونياً، بل تنفيذٌ محكم لأمر رباني. كل شيء يجري بقدر، وكل ذرة تعرف موضعها، وكل قبر يعرف من فيه، وكل نفس تُساق إلى الموعد الذي لم يغب عن علم الله يوماً.

وحين يستقر هذا اليقين في القلب، يتغيّر معنى الحياة؛ فلا يعود المؤمن خائفاً من كونٍ أعمى، ولا من مصادفةٍ تعبت به، ولا من مستقبلٍ خرج عن التدبير. فالذي يأمر السماء أن تنشق في وقتها، ويأمر الأرض أن تُخرج أثقالها في وقتها، هو الذي دبر للإنسان رزقه وأجله وابتلاءه ونجاته. وإذا كان الكون العظيم لا يضيع من أمره شيء، فكيف تضيع عنده دمعة المظلوم، أو دعوة المكروب، أو خطوة التائب، أو حسنة خبأها صاحبها بينه وبين الله؟

في ذلك اليوم ينشق السقف الذي حجب أبصارنا عن الغيب، وتُخرج الأرض ما حجبته في باطنها، ويكتشف الإنسان أن حياته كلّها كانت تجري بين سترين: سماءٍ تستر عنه عالم

الغيب، وأرضٍ تستر أجساد الراحلين؛ فإذا انشق الستر الأعلى، وتخلّت الأرض عن سترها الأدنى، لم يبق إلا الإنسان وعمله وربه. هناك تبدأ الحقيقة التي كانت الدنيا كلّها مقدمتها، ويبدأ اللقاء الذي كان كل كدح الإنسان يسير إليه، علم ذلك أم ظلّ عنه غافلاً.

الفصل الثاني

الكَذْحُ الَّذِي لَا يَضِيعُ: حِينَ يَنْتَهِي الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلًا قَبِيهٍ ﴿١﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٢﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٣﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٤﴾﴾

بعد أن انشقت السماء، وامتدت الأرض، وألقت ما فيها وتخلّت، يلتفت الخطاب من الكون العظيم إلى هذا المخلوق الصغير الذي عاش بين السماء والأرض، وظنّ أحياناً أن اضطرابه شأنٌ خفيٌّ لا تراه عين، وأن عمره يتبدد في الزحام كما تبدد قطرة المطر في التراب. يناديه الله نداءً يخلع عنه أوهام الهامشية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾؛ لا ينادي طبقةً دون طبقة، ولا جنساً دون جنس، ولا مؤمناً وحده ولا كافراً وحده، بل ينادي حقيقة الإنسان حيثما كانت، في قصرٍ أو كوخ، في شهرةٍ أو حمول، في قوةٍ أو ضعف؛ لأن القضية هنا أعمق من الأسماء التي يكتسبها الناس في الدنيا، إنها قضية المخلوق الذي خرج إلى الوجود بإرادة الله، ثم قضى عمره سائراً إليه، ثم بلغ الموعد الذي لا يتخلف عنه أحد.

ويأتي النداء بعد ذكر انقياد السماء والأرض، كأن السورة تُحضر الكون شاهداً، ثم تضع الإنسان أمام موقعه من هذا الوجود: السماء تنشق طائعةً، والأرض تُخرج أثقالها طائعةً، وأنت أيها الإنسان تمضي في طريقك، راغباً أو كارهاً، غافلاً أو ذاكرةً، حتى تنتهي إلى

ريك. ليست المسألة أن تختار هل تسير إلى الله أم لا؛ فهذا أمرٌ قد حُسم منذ أن دخلت الحياة، وإنما اختيارك الحقيقي هو: بأي قلبٍ تسير؟ وبأي عملٍ تصل؟ وبأي صحيفةٍ تقف؟ ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ كلمةٌ واحدةٌ تختصر السيرة البشرية كلها. فالكدح هو بذل الجهد مع المشقة، وهو حركةٌ لا تنفصل عن التعب؛ كأن الآية تنظر إلى الإنسان منذ أول صرخةٍ أطلقها حين خرج من رحم أمه، إلى آخر زفرةٍ يسلم بها روحه، فتصف الطريق كله بهذا اللفظ المكتنز: كدح. يكدح الطفل ليتعلم الوقوف، ويكدح الشاب ليبنى مستقبله، ويكدح الفقير في طلب قوته، والغني في حفظ ماله، والمريض في احتمال ألمه، والصحيح في مطاردة أمانيه، والمحِب في خوف الفقد، والمحروم في مقاومة الوحشة. حتى الراحة التي يطلبها الإنسان تحتاج إلى كدح، وحتى اللذة تحمل في أطرافها كلفةً خفية، وكأن الحياة لم تُخلق لتكون دار استقرار، بل معبراً تُصقل فيه الأرواح بالاختيار والابتلاء.

الآية لا تعد الإنسان بدنيا بلا تعب؛ لأن ذلك الوعد يخالف طبيعة الدار التي أُسكن فيها، ولكنها تنقذه من المعنى الأقصى من التعب: العبث. فليس أشد على الروح من أن تتألم دون غاية، أو تبذل دون أن يكون لبذلها ميزان، أو تنكسر دون أن يعرف أحدٌ أين موضع الكسر. أما حين يقول الله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، فإن الكدح يسترد معناه؛ كل ما احتمله الإنسان واقعٌ في طريق ينتهي إلى الله، وكل ألم صبر عليه يلقاه، وكل خيرٍ قدّمه محفوظ، وكل ظلم أصابه معلوم، وكل دمةٍ لم يلحظها الناس لم تغب عن رب الناس.

غير أن دقة التعبير القرآني تفتح أمام القلب باباً أعمق؛ فلم يقل: إنك كادحٌ في الدنيا فحسب، بل قال: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، فجعل غاية الحركة ربَّ الإنسان نفسه. إننا لا نمضي إلى الموت بوصفه عدماً، بل نمضي من خلال الموت إلى اللقاء، ولا نتخدر أعمارنا نحو حفرةٍ

صامتة، بل تصعد لحظةً بعد لحظةً إلى الموقف بين يدي الله. الزمن في الرؤية الإيمانية ليس وحشاً يلتهم الإنسان، وإنما مركبةٌ تنقله إلى مواعده؛ كل يومٍ ينقضي لا يأخذ قطعةً من العمر فقط، بل يقرب صاحبه خطوةً من الغاية التي من أجلها أُعطي العمر.

ولذلك فإن الإنسان لا يقف في مكانه قط، حتى حين يظن أنه ساكن. إن نبض قلبه حركةٌ إلى الله، وشيب شعره حركةٌ إلى الله، وضعف جسده حركةٌ إلى الله، وتعاقب الليل والنهار عليه حركةٌ إلى الله. قد يتوقف عن مشاريعه، وقد يؤجل توبته، وقد ينسحب من معارك الحياة، لكنه لا يستطيع أن ينسحب من رحلة العمر؛ فالطريق يمضي به وإن لم يمش، والأيام تحمله وإن لم يشعر، والموعِد يقترب وإن أشاح عنه ببصره.

ومن أعجب أوهام الإنسان أنه يتعامل مع لقاء الله كأنه احتمالٌ يحتاج إلى اقتناع، مع أنه المصير الذي تتحرك نحوه ذرات جسده كل لحظة. يستطيع المرء أن ينكر الشمس وهو واقفٌ تحت ضوءها، لكن إنكاره لا يطفئها؛ ويستطيع أن يغفل عن الموت، لكن غفله لا تؤخر أجله؛ ويستطيع أن يبني بينه وبين الآخرة جدراناً من اللهو، لكن الطريق يجري من تحت الجدران، ويحملها إلى حيث لم يكن يريد أن ينظر.

﴿فَلَا قِيَةَ﴾؛ وفي الضمير سعةٌ في الدلالة وعظمةٌ في الإيقاع؛ فأنت ملاقي ربك، وملاقٍ كدحك وعملك عنده. ستلقى الله فلا تعود الحقيقة خبراً تُصدقه أو تجادل فيه، وستلقى ما صنعت فلا يعود العمل ذكرى باهتةً انقضت مع زمنها. ما ظننته قد مضى تجده حاضراً، وما حسبته صغيراً تراه مثبّتاً، وما نسيتته من نفسك لم يغب عن كتابك. إن الأعمال لا تموت حين تنتهي حرّكتها؛ بل تنتقل من عالم الفعل إلى عالم الحفظ، ثم تخرج يوم القيامة في صور الجزاء.

وهكذا تهدم الآية وهمين كبيرين: وهم الإنسان الذي يظن أنه بلا غاية، وهم العمل الذي يظن صاحبه أنه بلا بقاء. أنت إلى ربك، وعملك أمامك؛ فلا أنت تضيع، ولا ما فعلت يضيع. وهذه الحقيقة تحمل للمحسن أعظم العزاء، وتحمل للسيء أشد الإنذار؛ فرمما مضى صاحب المعروف ولم يسمع كلمة شكر، لكن المعروف لم يمض، وربما نجا الظالم من محكمة الأرض، لكن ظلمه لم ينجُ من طريق اللقاء.

الكدح واحدٌ والمصائرُ مختلفة

جميع الناس كادحون، لكنهم لا يكادحون للشيء نفسه، ولا يبلغون المصير نفسه. هناك من يستهلك جسده في طاعة الله، ومن يستهلكه في معصيته؛ من يتعب كي يبني في الأرض موضعاً للرحمة، ومن يتعب كي يوسّع فيها دائرة الأذى؛ من يسهر على دمعة يتيم، ومن يسهر على تدبير ظلم؛ من يقاوم شهوته، ومن يقاوم صوت ضميره. التعب وحده لا يصنع الفضيلة؛ فربّ باطلٍ بذل صاحبه في سبيله عمره، وربّ طريقٍ انتهى بالماشي فيه إلى الخسران مع أنه قطعه بقدمين داميتين.

ولهذا لا تسأل الآية الإنسان: هل كدحت؟ فذلك شأن الجميع، وإنما تقوده إلى السؤال الأشد: فيمَ كدحت؟ وإلى أين وجّهت تعبك؟ وما الذي صنعتَ من المشقة التي لا مهرب منها؟ هل جعلتَ ألم الحياة طريقاً إلى الله، أم جعلته حجةً للابتعاد عنه؟ هل رَقَّ قلبك بالابتلاء، أم اشتدّ؟ هل طهرتَ الخسارة من التعلّق، أم ملأتك اعتراضاً وسخطاً؟ إن الابتلاء مادةٌ خام، وقد يصنع منها الإيمان سلماً، وقد تصنع منها الغفلة هاوية.

قد يعيش اثنان الألم نفسه، فيخرج أحدهما أكثر قرباً من الله، ويخرج الآخر أكثر قسوة؛ لأن الذي يصوغ قيمة التجربة ليس شكلها الخارجي وحده، بل المعنى الذي يستقبلها به

القلب. وحين يعلم المؤمن أن كدحه إلى ربه، لا يعود همه أن يتخلص من كل مشقة، بل أن يصل من خلالها صحيح الروح، نقي السريرة، غير خائفٍ لما عليه من الحق.

والناس عادةً يقيسون نجاح الرحلة بما جمعه السائر في الطريق: كم ملك؟ كم اشتهر؟ كم انتصر؟ أما القرآن فيقيس نجاحها بما يصل به العبد إلى نهاية الطريق: بأي صحيفة قدم؟ وبأي وجهٍ لقي الله؟ قد يصل إنسانٌ إلى آخر عمره وقد امتلأت يده من الدنيا، لكنه يصل خالي القلب من النجاة، وقد يصل آخر وليس في يده إلا حسن ظنه بالله وعملٌ صالحٌ لم يره الناس، فتكون يده في الحقيقة ممتلئين بما يبقى.

الكتاب الذي كتبناه بأعمارنا

بعد تقرير الكدح واللقاء تنتقل السورة مباشرةً إلى الكتاب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بَيِّنَةً﴾، لأن الكدح كله قد تحول إلى سطور. ذلك الكتاب ليس مؤلفاً غريباً يفاجأ الإنسان بمادته، بل هو سيرته التي أملاها يوماً بعد يوم، ووقعها باختياراته، وكتبها بجوارحه قبل أن يقرأها بعينه. نحن نكتب كتبنا الأخروية الآن؛ الحروف نيات، والسطور أعمال، والفصول أعوام، والخاتمة هي الحال التي تلقى الله عليها.

إن الإنسان في الدنيا شديد العناية بما يكتب عنه؛ يحب أن تكون سيرته حسنةً في أعين الناس، ويتألم من كلمةٍ تمس صورته، وربما أنفق جزءاً من عمره في تصحيح الانطباعات أكثر مما أنفق في تصحيح الحقيقة. لكن الكتاب الذي يُعطاه يوم القيامة لا تكتبه ألسنة المادحين، ولا تحوه حملات التبرير، ولا تتسلل إليه روايةٌ مزيفةٌ عن النفس؛ إنه الكتاب الذي لا يخضع إلا للحق، فتسقط عنده الفجوة بين ما كان المرء يبدو عليه وما كانه حقاً.

ويعطى الناجي كتابه بيمينه، واليمين في هذا المقام علامة التكريم والبشرى. قبل أن يقرأ تفاصيل الكتاب يعرف من جهة تسلمه أن الرحمة قد أحاطت به، كأن اليد تثلقى الخبر قبل العين، وكأن الأيمن يسري في مكانه من أول لمسة. يا لها من لحظة يتنى المؤمن لو بذل لها عمره مرتين: أن تمتد يده اليمنى فيعطى الكتاب، فيعلم أن كل سجدَةٍ ثقلت على الجسد قد صارت نوراً، وأن كل شهوة تركها لله لم تكن حرماناً، وأن كل مصيبة صبر فيها لم تسقط في قاع النسيان، وأن الله الذي هداه للعمل قد تفضل عليه بالقبول.

ومع ذلك فليست النجاة ثمناً يفرضه العمل على الله؛ فالعمل مهما عظم لا يساوي نعمة واحدة من نعم الله، ولا يحيط بحق ربوبيته، وإنما ينجو العبد برحمة الله التي هدته وسترته وقبلت منه. فالكتاب باليمين ليس شهادة استغناء، بل وثيقة افتقارٍ توجت بالرحمة.

الحساب اليسير: حين يستر الله ما علم

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾. ما أعذب هذه العبارة بعد هول انشقاق السماء وامتداد الأرض! كأن الرحمة تفتح نافذة في قلب المشهد العظيم، وتقول للمؤمن: ليس كل من وقف للحساب هلك، فهناك حسابٌ تحفه عناية الله، وعرضٌ للأعمال يعقبه العفو والستر.

وقد بين النبي ﷺ أن الحساب اليسير هو العرض، أما من نوقش الحساب وعُسر عليه فيه فقد هلك؛ لأن العبد إذا استقصي عليه في ذنوبه، وطولب بحق كل نعمة، لم يجد لنفسه نجاةً بعمله المجرد. فاليسر هنا ليس لأن الصحيفة خلت بالضرورة من كل تقصير، بل لأن الله عامل عبده بفضله، وأراه ما كان منه ثم ستره وغفره، ولم يفضحه على رؤوس الخلائق.

وما بين عبدٍ يناقشه الله في كل صغيرة، وعبدٍ يستره ويعفو عنه، تمتد حياةٌ كاملة من الصلة بالله. إن المؤمن لا يغتر بعمله، بل يظل بين الاجتهاد والاستغفار، يعمل كأن النجاة تحتاج

إلى كل طاقته، ويستغفر كأن عمله كله لا يكفيهِ. يعرف أن الطاعة نفسها تحتاج إلى توبةٍ من نقصها، وأن حضور القلب لا يفي بجلال الله، وأن أعظم ما يحمله إلى الموقف قلبٌ لم يتكبر على الرحمة.

والحساب اليسير يعلِّمنا أن غاية التربية الإيمانية ليست صناعة إنسانٍ معجبٍ بسجله، بل إنسانٍ صادقٍ يعرف ضعفه، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء تاب إليه، وإذا مدحه الناس خاف أن يعرفوا من ظاهره ما لا يوافق باطنه، وإذا خلا بنفسه راقب الكتاب الذي لا يترك خلوةً ولا علناً.

إن من رحمة الله أن باب تعديل الصحيفة مفتوحٌ ما دام الإنسان في دار العمل. الذنب يُكتب، ولكن التوبة تحوه، والسيئة تثبت، ولكن الحسنة قد تتبعها فتمحوها، والقلب يقسو، ولكن القرآن يعيده حياً، والطريق يتعد، ولكن خطوةً صادقةً إلى الله تستطيع أن تغيّر جهة العمر كله. ما دام الكتاب لم يُغلق، فإن اليأس كذبة؛ وما دام الإنسان يتنفس، فوسعه أن يكتب في آخر فصوله ما يضيء صفحاتٍ أظلمها التقصير.

العودة التي لا فراق بعدها

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾. لا تقف البشرية عند تسلُّم الكتاب باليمين، ولا عند الحساب اليسير، بل تكتمل بالرجوع إلى الأهل مسروراً. فالقرآن يعرف أن نعيم الإنسان لا يكتمل بالنجاة الفردية وحدها؛ إن القلب يريد من يحبهم، ويريد أن تتحول الوحشة الطويلة إلى اجتماع، وأن يطمئن على الوجوه التي عاش يخشى فراقها.

كم من أهلٍ فرقهم المقابر، وكم من بيتٍ أطفأ الموت بعض مصابحه، وكم من إنسانٍ بقي بعد أحبته يحمل ذكرياتهم كأنها وطنٌ مفقود. في الدنيا يعود المرء إلى أهله وفي يده رزقٌ أو

خبرٌ أو نجاح، لكنه يعرف في أعماقه أن هذا الاجتماع مؤقت، وأن الموت واقفٌ خارج البيت ينتظر ساعةً مكتوبة. أما عودة الآخرة فهي انقلابٌ إلى أهلٍ لا يهددهم الفناء، وسرورٌ لا تختبئ في أطرافه خشية الزوال.

وفي لفظ ﴿يَقْلَبُ﴾ إيحاءٌ بأن النجاة ليست وقوفاً جامداً بعد الحساب، بل انتقالٌ سريعٌ من رهبة الموقف إلى دفء اللقاء. لقد انتهى الخوف، وطوي الانتظار، وعرف العبد مصيره، وأذن له أن يعود إلى أهله حاملاً أعظم بشارةٍ يمكن أن يحملها إنسان: لقد رضي الله، وانقضى الفزع، وبدأ الخلود.

إنه يرجع مسروراً، لا فرحاً بنجاته وحدها، بل لأن كل ألم مضى ظهر معناه، وكل فراقٍ انتهى إلى لقاء، وكل صبرٍ تفتّح عن جزاء. هناك يدرك أن الطريق، على قسوته، لم يكن طويلاً كما توهم، وأن السنين التي أثقلت كتفيه في الدنيا صارت ذكرى بعيدة أمام أبدٍ لا ينقضي، وأن الله لم يَضِع شيئاً من كدحه، بل أعاد إليه ما فقدته مطهراً من النقص، آمناً من الفناء.

يا لها من مقابلةٍ عميقة: كان في الدنيا يعود إلى أهله متعباً من الكدح، فيعود في الآخرة إليهم مسروراً بجزاء الكدح. كان يدخل بيته حاملاً هموم الخارج، فيدخل الجنة وقد ألقى عنه آخرهم. كان يخشى أن يفقدهم أو يفقدوه، فإذا هم مجتمعون في دارٍ لا يمر بها موت. وكأن السرور الأخير ليس إحساساً عابراً، بل جواب الله عن تاريخٍ كاملٍ من الحزن.

وهذا المشهد يعيد ترتيب أحزان المؤمن في الدنيا؛ فلا يعود كل فراقٍ نهاية، ولا كل قبرٍ إغلاقاً للحكاية، ولا كل دمةٍ علامة هزيمة. ما دام الطريق ينتهي إلى الله، وما دام الحساب قد يكون يسيراً، وما دام بعده أهلٌ وسرور، فإن للمؤمن قدرةً عجيبةً على أن يحزن دون أن

يأس، وأن يفتقد دون أن يعترض، وأن يمشي في ممرات الفقد وفي قلبه نافذة تطل على اللقاء.

لكن هذه العودة لا تُمنح بالتمني، وإنما تُبنى في أثناء الكدح. من أراد أن ينقلب إلى أهله مسروراً فليكن سبباً في نجاتهم لا سبباً في غفلتهم، وليحبهم حباً يقودهم إلى الله، لا حباً يجعل لهم الطريق البعيد عنه. إن أعظم وفاء للأهل ليس أن توفر لهم راحة أيامهم وحدها، بل أن نعينهم على اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب، وأن نصنع في البيت ذاكرةً من الصلاة والصدق والرحمة يبقى أثرها حين تسقط سائر الذكريات.

وهكذا ترسم الآيات الرحلة في كهاتٍ معدودة: كدح، فلقاء، وكتاب باليمين، لحساب يسير، ثم عودةً إلى الأهل وسرور. وبين أول الطريق وآخره تكمن حياة الإنسان كلها. فن عرف النهاية هانت عليه مشقة السير، ومن رأى بقلبه لحظة استلام الكتاب لم يستهن بحرف يكتبه اليوم، ومن اشتاق إلى الرجوع مسروراً لم يسمح للعالم أن تسرق منه أهله مرتين: مرةً حين تبعدهم عن الله، ومرةً حين تفرق بينهم المصائر.

إن المؤمن لا يطلب من الله أن يعفيه من الكدح، فقد كتب الله الكدح على الإنسان، ولكنه يسأله أن يجعل كدحه إليه وفي رضاه، وأن يرزقه في الطريق قلباً لا يخرف، وعملاً لا يضيع، وتوبةً لا تُرد، ثم يمد يده يوم القيامة فيجد كتابه في يمينه، ويجد عيوبه قد سترها العفو، ويجد أهله ينتظرونه في دار السرور. عندئذ يعلم أن كل ما بذله كان قليلاً، وأن رحمة الله كانت أكبر من الطريق ومن الكادح ومن الكدح كله.

الفصل الثالث

السُّرُورُ الْخَادِعُ: حِينَ يَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ بِمَا نَسِيَهُ

قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۚ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۚ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۚ بَلَىٰ ۚ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾

في الجهة الأخرى من المشهد يقف إنسان انتهى كدحه إلى الخسران. لقد سار هو أيضًا في الطريق، وأنفق من العمر ما أنفقه الناجي، وأتعب جسده في مطاردة ما يريد، وتعاقت عليه الليالي والأيام كما تعاقت على غيره، لكنه بلغ النهاية بلا زادٍ ينجيهِ، لأن المشكلة لم تكن في قلة الحركة، بل في فساد الوجهة. وصل إلى الموعد الذي كان يفر منه، ووجد الحقيقة التي قضى حياته يدفعها إلى ما وراء تفكيره، فجاءه كتابه من الجهة التي وضع فيها آخرته طوال عمره: ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.

إن الجزء هنا ينطق بصورة الجريمة. فقد عاش يجعل أمر الله خلف ظهره، ويلقي بالموعظة وراءه، ويمضي نحو شهوته من غير أن يلتفت إلى المصير، فلما جاء يوم الحساب أُعطي الكتاب من وراء ظهره. وكأن صحيفته لا تصل إلى يده فحسب، بل تكشف هيئة قلبه في الدنيا؛ لقد كان وجهه إلى العاجلة وظهره إلى الآخرة، فصار موضع تسلُّم الكتاب ترجمةً جسديةً لذلك الانقلاب الباطني.

وقد يمد يده وراء ظهره في ذلِّ وانكسار، أو تُجعل يده إلى خلفه، فيلتقي سجل عمره في صورةٍ تبلغ غاية الإهانة. هو يعلم، قبل أن يقرأ، أن جهة الكتاب قد أعلنت النتيجة، وأن الكلمات التي كان يكتبها غافلاً قد اجتمعت الآن لتشهد عليه. فما كان متفرقاً في الأيام صار مجموعاً في صحيفة، وما كان يراه لحظةً وتنقضي صار تاريخاً لا يستطيع أن ينكره، وما كان يفعلهُ مستتراً عاد إليه في مشهدٍ لا ستر فيه.

في الدنيا كان يستطيع أن يُبدل روايته كلما احتاج؛ يبرر خطأه، ويلقي تبعة اختياره على غيره، وينتقي من سيرته ما يحسن صورته، ويحذف من حديثه ما يفضحه. أما هناك فالكتاب لا يتكلم بلسان صاحبه، بل بلسان الحقيقة. لا يملك أن يحرق نسخته الأخيرة، ولا أن يستدرك جملةً، ولا أن يحو موقفاً؛ لأن زمن الكتابة انتهى، وبدأ زمن القراءة.

والإنسان العاقل لا ينتظر حتى يفاجأ بكتابهِ، بل يقرأ مقدماته الآن في قلبه. فالصحيفة الأخروية ليست غيباً كاملاً عن صاحبها؛ قد يجهل تفاصيلها، لكنه يعرف وجهتها العامة. يعرف مواضع الصدق والكذب، ويعرف الأبواب التي يدخل منها الذنب، ويعرف الحقوق التي أخر ردها، ويعرف التوبة التي ظل يؤجلها، وإن حاول أن يغطي هذه المعرفة بضوضاء الأعذار. في داخل كل إنسان قارئ صامت يرى جانباً من الكتاب قبل أن يُنشر، ولذلك كانت محاسبة النفس رحمة؛ إنها قراءةٌ مبكرةٌ تتيح للمرء أن يصحح ما دام التصحيح ممكناً.

حين لا يجد الإنسان كلمةً إلا الهلاك

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾؛ حين يرى المصير الذي صنعه لنفسه، لا يطلب خلاصاً؛ فقد أدرك أن زمن الخلاص قد فات، وإنما ينادي الهلاك ويتمنى الفناء. والثبور هو الهلاك والويل،

فيدعوه كما يدعو المضطر من يظن أنه سينقذه، لكن المفارقة المفزعة أن ما يطلبه هو العدم نفسه؛ لأن البقاء أمام العذاب أصبح أشد عليه من الفناء.

في الدنيا كان يخشى الموت ويتمسك بالحياة، ويجمع لطيل شعوره بالأمان، ويهرب من كل ما يذكره بالنهاية؛ فإذا به في الآخرة يتمنى الموت فلا يجده. كان يعدُّ الحياة أكبر نعمة ولو قضاه بعيداً عن الله، فلما انكشفت حقيقة ما صنع تحولت الأمنية: لم يعد يريد حياةً ولا امتداداً، بل يريد أن ينتهي وجوده كي لا يواجه نتيجته.

وما أوجع أن يدعو الإنسان على نفسه بالهلاك بعد أن ظل الله يدعوه إلى النجاة! جاءته المواعظ، ومَرَّت به الجنائز، وقرأ الآيات، وسمع نداء التوبة، وأراه الله من تقلب الدنيا ما يكفي ليوقظه، لكنه كان كلها فُتِحَ له بابٌ إلى الله أغلقه، وكلها لاحت له الحقيقة أخفاها خلف شهوةٍ جديدة. فلما أغلقت أبواب العمل، صار ينادي ما كان يستطيع اتقاءه، ويتمنى نهايةً لا تُمنَح له.

كان في إمكانه أن يقول في الدنيا: ربِّ اغفر لي، فإذا به يقول في الآخرة: يا ثوراه. وبين النداءين عمرٌ كامل؛ كلمة توبة صادقة في دار العمل كانت كفيلاً بأن تغيّر اتجاه الصحيفة، لكن الغرور أوهمه أن الوقت واسع، حتى انتهى الوقت وبقي الندم. ليس أخطر ما في المعصية لذتها العابرة، بل قدرتها على تسويق الرجوع؛ فالشيطان لا يحتاج دائماً إلى إقناع الإنسان بأن التوبة باطلة، يكفي أن يقنعه بأنها مؤجلة.

﴿وَصَلِّ سَعِيْرًا﴾؛ لا يقف الأمر عند ندم النفس، بل ينتقل إلى جزاء العمل. والسعير نارٌ متّقدة مستعرة؛ نارٌ لم تشعلها مصادفة، بل قامت على عدل الله، بعد قيام الحجة وامتداد المهلة واتباع الإنذار. وفي الآية من الإيجاز ما يزيد المشهد رهبة؛ فلا تفاصيل تصرف القلب عن

الحقيقة، وإنما مصيرٌ يقال في كلمات: كُتِبَ من وراء الظهر، فدعاءٌ بالهلاك، فدخلٌ في السعير.

إن القرآن حين يذكر النار لا يريد أن يملأ الخيال بالرعب المجرد، بل أن ينقذ الإرادة قبل أن تفقد قدرتها على الاختيار. الوعيد رحمةٌ سابقة للعذاب؛ لأنه يكشف للإنسان نهاية الطريق وهو لا يزال عند بداياته. ولو ترك المرء يمضي إلى الهاوية من غير إنذار لكان ذلك حرماناً من الرحمة، أما أن يصف الله المصير بهذه القوة، فذلك لكي يرتد القلب قبل أن تصبح الهاوية واقعاً لا يمكن الرجوع منه.

فرحٌ قصيرٌ يلد حزنًا لا ينتهي

ثم تكشف السورة عن شيء من تاريخ هذا الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾. وهنا تقيم الآيات مقابلةً دقيقةً بين رجلين وسورين: الأول أعطي كتابه بيمينه، ثم انقلب إلى أهله مسروراً؛ والثاني كان في الدنيا بين أهله مسروراً، ثم انقلب في الآخرة يدعو ثبوراً ويصلي سعيراً. السرور في ذاته ليس مذمومًا، فالله هو الذي وصف به نعيم الناجي، وإنما المذموم سرورٌ غافلٌ لا يرى وراء اللحظة عاقبة، وفرحٌ يقوم على الإعراض عن الله، وطمأنينةٌ كاذبة تجعل الإنسان يتصرف كأن النعمة توقعُ أبدي على سلامة مصيره.

كان مسروراً بين أهله، آمناً في محيطه، يضحك ويأكل ويخطط، وربما رأى اجتماعهم دليلاً على أن حياته بخير، ولم يسأل نفسه: هل أنا بخير عند الله؟ اكتفى بدفع المجلس عن نور الهداية، وبقبول الناس عن قبول الحق، وبهدوء البيت عن سلامة القلب. كان أهله يحيطون به، لكن هذا الاجتماع لم يحمه من الوحدة الأخيرة؛ لأن العائلة التي لا تتعاون على النجاة قد تتحول من سكنٍ مؤقت إلى ستارٍ يحجب المصير.

لا تدم الآية الأهل ولا السرور بهم، فالأهل نعمة، والأنس بهم من رحمة الله؛ لكنها تدم
أن يتحول السرور إلى غفلة، وأن يظن الإنسان أن رضاء حياته شهادة له بالرضا، وأن يستغني
بعالمه الصغير عن ربه. كم من إنسان خدعه انتظام يومه، فقال في سريره: ما دامت صحي
قائمة، وأموالي محفوظة، وأحبتي حولي، فأين الخطر؟ ولم يفهم أن الإهمال ليس إهمالاً، وأن
تواتر النعم قد يكون حجة عليه إن لم تقدّه إلى الشكر.

هناك سرورٌ يولد من الطاعة، فيزيد القلب تواضعاً وامتناناً، وسرورٌ يولد من الغفلة، فيزيده
قسوةً وأمناً من مكر الله. الأول يرى النعمة جسراً إلى المنعم، والثاني يقف عند النعمة حتى
تحجبه عن واهبها. الأول يفرح ويخاف أن يكون قد قصر في الشكر، والثاني يفرح كأن له
حقاً ذاتياً في استقرار ما أُعطي. الأول إذا اجتمع بأهله دعا لهم بالنجاة وعمل لها، والثاني
يكتفي بأن يكونوا شركاءه في المتعة، ولو كانوا جميعاً يسيرون إلى مصيرٍ لا يستعدون له.

وفي تكرار الأهل بين المشهدين حكمةٌ تزلزل القلب؛ فالناس في الدنيا يمتنون أن يكونوا سعداء
مع أهلهم، لكن القرآن يرفع الأمنية من الوقت إلى الأبد: ليست القضية أن تضحك معهم
أعواماً قليلة، بل أن تنقلب إليهم مسروراً بعد الحساب. وما قيمة بيتٍ امتلأ بالضحك إذا
كان أهله لا يتعاونون إلا على نسيان الله؟ وما قيمة مائدةٍ تجمع الأجساد بينما تباعد
الأرواح عن طريق الجنة؟ إن الحب الذي يترك محبوبه يسير إلى الهلاك ليس حباً كاملاً،
وإن بدا رقيقاً؛ فالحب الأخروي يريد للآخر ألا يفقد سعادته حين تنتهي السعادة المؤقتة.

قد تكون الأسرة رحمةً تقود إلى الله، وقد تصبح جماعةً يتواطأ أفرادها على الغفلة؛ يجمل
بعضهم لبعض الخطأ، ويسكتون عن الانحراف حفاظاً على صفاء ظاهري، حتى إذا تفرقت
بهم الآخرة انكشف أن ذلك الصفاء كان هدنةً قصيرةً مع الحقيقة. أما الأسرة المؤمنة فلا

تجعل النصيحة خصومة، ولا الطاعة عبئاً على المسرات، بل تبني سرورها الدنيوي على أمل السرور الأبدي؛ تجتمع على الطعام، ولكنها لا تنسى المنعم، وتضحك، ولكن ضحكها لا يقتل يقظتها، وتحب الحياة، ولكنها لا تتخذها بديلاً عن الآخرة.

الظن الذي بنى عليه الإنسان غفلته

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾؛ هنا تصل السورة إلى الجذر الباطني للخسران. لم تكن مشكلته أنه فرح فحسب، بل أن فرحه قام على ظنٍ فاسد: ظن أنه لن يرجع إلى ربه. ويحور أي يرجع؛ فقد عاش كأن الطريق خطٌ ينتهي عند الموت، لا دائرةٌ تعيد المخلوق إلى خالقه، وكأن الحياة منحةٌ بلا مساءلة، والعمل حركةٌ بلا عاقبة، والجسد إذا صار تراباً طويت القصة كلها.

هذا الظن هو السر الكامن خلف كثيرٍ من الانحراف، حتى عند من لا يصحح بإنكار الآخرة. فقد يؤمن الإنسان بالبعث بلسانه، لكنه ينظم حياته كما لو أنه لن يحور؛ يؤجل الحقوق، ويظلم، ويتوسع في الشهوات، ولا يحسب للقاء حساباً. ليس الإنكار دائماً فكرةً تُقال، فقد يكون طريقةً في العيش؛ وربّ رجلٍ يردد أنه مؤمن بالآخرة، لكن يومه كله مبنيٌّ على أنها لن تأتي.

لو أيقن الإنسان بالرجوع حق اليقين لتغير وزن الأشياء في قلبه. لما باع حقاً دائماً بمكسبٍ عابر، ولما خاطر بصحيفته كي يفوز بصورةٍ حسنة في أعين الناس، ولما جعل لذة دقائق سبباً في حسرةٍ طويلة. إن فساد الموازين يبدأ من ضعف اليقين بالرجوع؛ فحين تبتعد الآخرة عن الشعور، تكبر الدنيا حتى تملأ الأفق، وتبدو خسائرها كأنها النهاية، ومكاسبها كأنها الخلود.

لقد ظن أنه لن يحور، مع أن كل شيء حوله كان يعلمه الرجوع. الماء يصعد ثم يعود مطراً، والبذر يغيب في الأرض ثم يعود نباتاً، والقمر ينقص ثم يكتمل، والليل يطوي الوجود ثم يرده الفجر إلى الضوء، والإنسان نفسه خرج من تراب الأرض ثم يعود إليها؛ فكيف يرى دوائر الرجوع تملأ الكون ثم يستبعد أن يعود هو إلى الذي بدأ خلقه؟

وليس المشكلة في غياب الأدلة وحده، بل في أن النفس قد تكره النتيجة التي تقود إليها الأدلة. فلاعتراف بالرجوع يعني الاعتراف بالمسؤولية، والمسؤولية تضع للشهوة حداً، وللشهوة حساباً، وللظلم نهاية. لذلك قد يتخذ الإنسان من الإنكار مأوى أخلاقياً؛ لا لأنه لم ير العلامات، بل لأنه يريد حياة لا يتبعها سؤال. غير أن الحقيقة لا تتغير بما تشبهه النفس، كما لا يختفي الفجر لأن النائم يكره أن يستيقظ.

كلمة واحدة تهدم الوهم

﴿يٰٓأَيُّهَا﴾. كلمة قصيرة تقف في وجه عمرٍ كامل من الغفلة. بلى، سيحور؛ بلى، سيعود؛ بلى، سيُبعث؛ بلى، سيجد كتابه؛ بلى، سيقف أمام ما حاول الهرب منه. ما ظنه الإنسان لا يغير ما قضاه الله، وما بناه من أوهام لا يصمد أمام كلمة واحدة من الحق.

وفي ﴿يٰٓأَيُّهَا﴾ حسمٌ لا يترك للباطل منفذاً. فالعقيدة التي أنكرها لم تصبح موضع شكٍّ بإنكاره، والميعاد الذي استبعده لم يتأخر بسبب استبعاده. لقد كان يظن، لكن الله يعلم، والظن مهما انتفخ في النفس يظل دخاناً أمام علم الله.

ثم يأتي التعليل الذي يكشف إحاطة الرقابة: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾. لم يكن غائباً عن الله لحظة واحدة. رآه وهو يضحك بين أهله، ورآه وهو يخفي شكه خلف لهوه، ورآه حين

عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَأَعْرَضَ، وَحِينَ نَادَاهُ ضَمِيرُهُ فَأَسْكَنَتْهُ، وَحِينَ قَدَرَ عَلَى التَّوْبَةِ فَأَجَلَّهَا. لَمْ يَكُنِ الْإِمْهَالُ غِيَابًا عَنِ الْمَشْهَدِ، بَلْ كَانَ حِلْمًا مِنْ رَبِّ بَصِيرٍ.

وَتَعْبِيرُ ﴿رَبَّهُ﴾ يُضِيفُ إِلَى الْمَشْهَدِ أُلْمًا آخَرَ؛ فَالَّذِي عَصَاهُ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا عَنْهُ، بَلْ رَبُّهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَرَبَّاهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَمَلَهُ. كَانَ يَعِيشُ بِنِعْمَتِهِ، وَيَتَّقُوهُ بِعَافِيَتِهِ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَيُسْتَعْمَلُ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ فِي نَسْيَانِ اللَّهِ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعَاجِلْهُ رَبُّهُ، بَلْ فَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الرَّجُوعِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ لَيْسَتْ قُدْرَةً تَحْصِي فَقْطَ، بَلْ رَحْمَةٌ تَرَعَى وَتَنْذِرُ وَتَمْهَلُ، حَتَّى إِذَا أَصْرَ الْعَبْدَ عَلَى الْهَرْبِ مِنَ النُّورِ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

وَبَصَرَ اللَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى ظَاهِرِ الْأَفْعَالِ، بَلْ يَنْفِذُ إِلَى الدَّوَاخِ وَالْخَفَايَا. يَرَى الْحَسَنَةَ الَّتِي لَمْ يَقْدِّرْهَا النَّاسُ، كَمَا يَرَى الرِّيَاءَ الَّذِي زَيَّنْ عَمَلًا عَظَّمَهُ النَّاسُ. يَرَى دُمْعَةَ التَّائِبِ فِي الظَّلَامِ، كَمَا يَرَى الْقَسْوَةَ الْمُخْتَبِئَةَ خَلْفَ الْكَلَامِ الرَّقِيقِ. وَهَذَا الْمَعْنَى يُوْرِثُ الْمُؤْمِنَ خَوْفًا وَرَجَاءً مَعًا: خَوْفًا لِأَنَّ الْخَفَايَا مَكْشُوفَةٌ، وَرَجَاءً لِأَنَّ الْخَيْرَ الْمَجْهُولَ عِنْدَ الْخَلْقِ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ.

إِنَّ الْمَظْلُومَ حِينَ يَقْرَأُ ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يَعْلَمُ أَنَّ مَا جَرَى لَمْ يَغِبْ، وَأَنَّ الْجَرْحَ الَّذِي عَجَزَ عَنْ وَصْفِهِ قَدْ رَأَاهُ اللَّهُ كَامِلًا. وَالتَّائِبُ يَعْلَمُ أَنَّ صَدَقَهُ لَمْ يَغِبْ، وَالْمُحْسِنُ الْخَفِيَّ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ لَمْ يَضَعْ، وَالْمُغْتَرِّيعُ يَعْلَمُ أَنَّ سِتَارَ النَّاسِ لَا يَحْجِبُهُ عَنِ الْبَصِيرِ. إِنَّهَا آيَةٌ تُعِيدُ لِكُلِّ سَرٍّ وَزَنَةٍ؛ فَلَا خَيْرَ يُضِيعُ لَصِمَتَهُ، وَلَا شَرٌّ يَنْجُو بِخِفَائِهِ.

وَهَكَذَا تَكْشِفُ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنَّ الْخُسْرَانَ لَمْ يَبْدَأْ عِنْدَ تَسَلُّمِ الْكِتَابِ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ، بَلْ بَدَأَ قَبْلَ ذَلِكَ بِزَمَنِ طَوِيلٍ: بَدَأَ حِينَ جَعَلَ الْإِنْسَانَ آخِرَتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَحِينَ اتَّخَذَ السَّرُورَ سِتَارًا، وَحِينَ بَنَى يَوْمَهُ عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ. أَمَّا الْكِتَابُ وَالسَّعِيرُ فَلَيْسَا إِلَّا ظَهْرًا أُخِيرَا لَمَّا تَرَسَّخَ فِي الْقَلْبِ وَصَارَ مَنِهَجًا فِي الْحَيَاةِ.

وبين الرجلين في الفصلين السابق والحاضر تقف معادلة السورة واضحة: هذا كدح إلى الله وهو يعلم أنه ملاقيه، فاستعد للرجوع، فأخذ كتابه بيمينه وانقلب إلى أهله مسروراً، وذاك كدح إلى ربه وهو يظن أنه لن يحور، فغفل عن الكتاب، واستنفد سروره في العاجلة، ثم لم يجد في الآخرة إلا الثبور. كلاهما عاش بين أهل، وكلاهما عرف شيئاً من الفرح والتعب، لكن أحدهما جعل الدنيا طريقاً، والآخر جعلها وطناً أخيراً؛ فلما انتهى الطريق ظهر الفرق بين من استعد للعودة ومن أنكرها.

فليست الحكمة أن يحرم المؤمن نفسه من السرور، بل أن يختار السرور الذي لا ينقلب حسرة؛ وأن يفرح بنعم الله دون أن ينسى لقاءه؛ وأن يحب أهله حباً يتجاوز جدران البيت إلى أبواب الجنة؛ وأن يقرأ كتابه كل ليلة بالتوبة والمراجعة قبل أن يأتي يومٌ يُعطاه فيه من جهةٍ لا يستطيع تغييرها. فن تذكر أنه سيحور، أحسن السير؛ ومن علم أن ربه به بصير، استحمياً أن يجعل نظر الله أهون الناظرين إليه.

الفصل الرابع

طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ: الْإِنْسَانُ فِي مَدَارِ التَّحَوُّلِ

قال الله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لِتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾

بعد أن عرضت السورة المصيرين، وكشفت أن وراءهما إيماناً بالرجوع أو ظناً بعدمه، ترفع أبصارنا مرةً أخرى إلى السماء؛ لكننا لا نراها الآن وهي تنشق، بل نراها في لحظةٍ من أكثر لحظاتها سكوناً وجمالاً: حين ينسحب النهار، ويمتد الشفق على الأفق، ثم يجمع الليل ما تفرق في الضوء، ويكتمل القمر قرصاً منيراً في قلب الظلام. وكأن السورة تأخذ القلب من صخب الحساب إلى هذا المشهد الهادئ، لا لتخفف عنه جلال الحقيقة، بل لتريه أن الحقيقة نفسها مكتوبةٌ في التحولات اليومية التي اعتادها حتى كاد لا يراها.

ما أبعد المسافة في الشعور بين انشقاق السماء في أول السورة واتساق القمر هنا، غير أن المشهدين يخرجان من أصلٍ واحد: الكون لا يثبت على حال؛ له أطواره التي قدرها الله، وجماله نفسه قائمٌ على التحول، ونظامه يتحرك من صورةٍ إلى أخرى حتى يبلغ الأجل المكتوب. السماء التي تحمل الشفق والقمر اليوم هي السماء التي ستنشق غداً، والليل الذي يجمع الأشياء في ستره صورةٌ متكررةٌ لزمانٍ سيجمع الله فيه الخلائق للحساب، والقمر الذي

يبدأ هلالاً ثم يكتمل شاهدٌ على أن النقص والاكتمال، والظهور والخفاء، مراحل في نظامٍ لا يختل.

الشفق: آخر رسائل النهار

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾. يقسم الله بما شاء من خلقه، وفي قسمه تنبيهٌ إلى عظمة المقسم به وما يحمل من آية. والشفق ذلك الضوء الأحمر الباقي في الأفق بعد غروب الشمس، اللحظة التي لا هي من تمام النهار ولا هي من استقرار الليل؛ حدٌّ رقيقٌ بين عالمين، يودع فيه الضوء وجه الأرض قبل أن يغمرها الظلام.

إنه مشهدٌ يراه الناس كل يوم، لكن الاعتياد قد يسلب الأشياء قدرتها على الإدهاش؛ يمر الشفق ولا يتوقف القلب ليسأل: من الذي يطفئ النهار بهذه الرقة؟ ومن الذي ينقل الوجود من صخب الضوء إلى سكونية الظلمة دون أن تضطرب حركة الكون؟ ومن الذي يرسم على حافة الأفق هذا اللون، ثم يحوه في موعدٍ لا يتقدم ولا يتأخر؟

ليس الانتظام سبباً في ضعف الدلالة، بل هو وجهٌ من وجوه إعجازها؛ لأن الحدث الذي يتكرر بدقة أعظم دلالةً على الحكمة من حدثٍ يقع مصادفةً مرةً واحدة. كل شفقٍ شهادةٌ جديدة بأن الكون لا يدير نفسه، وأن هذه التحولات الهائلة تنساب في هدوء لأنها واقعةٌ تحت تدبير من لا يعجزه شيء.

والشفق ليس ليلاً كاملاً ولا نهاراً كاملاً، بل منطقة انتقال، ولهذا يلائم المعنى الذي ستصل إليه الآيات: ﴿تَرَكِبْنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾. فالإنسان أيضاً يقضي حياته في الانتقال، ويعيش كثيراً من مراحلها كما يعيش الأفق لحظة الشفق؛ خارجاً من حالٍ لم يعد يملكه، داخلاً في حالٍ لم يكتمل بعد. يخرج من الطفولة فلا يعود طفلاً، ولا يستقر في الشباب

دفعَةً واحدةً؛ يغادر صحبةً قديمةً قبل أن يفهم مرضه الجديد؛ يتجاوز علاقةً أو مكاناً أو حلاً، ثم يقف في المسافة بين ما انتهى وما لم يبدأ.

وتلك المسافات الانتقالية هي أشد أطوار النفس حيرة؛ لأن الإنسان يطلب أسماءً مستقرةً لأحوالٍ متحركة، ويريد وضوح النهار أو استقرار الليل، بينما يقدر الله له أن يعبر شفق التحول. وقد يظن المرء أن غموض المرحلة دليل ضياع، مع أنه قد يكون علامة انتقالٍ يريه الله من خلاله لطورٍ لم يبلغه بعد.

ما أكثر ما يحزن الإنسان حين يغرب شيءٌ أحبه، كأن الغروب إعدامٌ للجمال، لكن الشفق يعلمه أن بعض النهايات تحمل جمالاً خاصاً، وأن الضوء حين يغادر لا ينطفئ دفعَةً واحدة، بل يترك على الأفق أثراً يبهئ النفس لليل. وهكذا تمر بعض النعم من حياتنا؛ تنتهي صورتها، ولكنها تترك أثراً من معرفةٍ أو نضجٍ أو حنين، كي لا نخرج منها فارغين كما دخلنا.

غير أن التأمل لا يحول الشفق عن حقيقته الكونية إلى رمزٍ مجرد؛ فهو آيةٌ في ذاته، خلقه الله وجعل فيه جمالاً ونظاماً، ثم فتح للنفس من خلاله باب الاعتبار. والقرآن لا ينتزع الإنسان من العالم ليعرفه بالله، بل يعيده إلى العالم بعينٍ جديدة؛ فيصبح الأفق كتاباً، وتعاقب الضوء والظلام موعظةً، ويتحول المشهد المألوف إلى سؤالٍ عن الخالق والمصير.

الليل الذي يجمع ما تفرّق

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي وما جمع وضمّ. فإذا غاب الشفق واستوى سلطان الليل، أخذ الوجود تحت جناحه؛ تعود الكائنات إلى مساكنها، وتجتمع الأجساد إلى مضاجعها، وتهدأ الحركات التي بعثها النهار، ويضم الظلام في سعته ما كان ظاهراً متفرقاً في الضوء.

النهار يكشف التفاصيل ويفرقها في مسالك السعي، أما الليل فيعيد الأشياء إلى كلِّها وظلالها، ويجمع الإنسان إلى نفسه بعد أن وزعته المطالب بين الوجوه والطرق. في النهار يتكلم المرء بلغاتٍ كثيرة تناسب أدواره؛ لغة العمل، ولغة المجاملة، ولغة الدفاع عن صورته، فإذا جاء الليل وسقطت بعض الأقنعة، عاد إلى صوته الداخلي، واكتشف ما جمعه يومه في قلبه من تعبٍ أو ذنبٍ أو رجاء.

ما أصدق الليل؛ فهو لا يصنع ما في النفس، لكنه يزيل الضجيج الذي كان يحجبه. ولهذا كانت الخلوة في الليل ميداناً عظيماً لمعرفة الإنسان بنفسه وربّه؛ ففيه تمام العيون التي راقبها، ويخفت التصفيق الذي استمد منه قيمته، ويقف وحيداً أمام الله، فلا يبقى له إلا حقيقة قلبه. فإن قام يصلي، كانت خطواته إلى النور خارجةً من قلب الظلام، وإن بكى من خشية الله، كان دمه سراً لا يطلب شاهداً من الناس؛ وإن استغفر، أعاد ترتيب صحيفته قبل أن يطالع فجرٌ جديد.

والليل يجمع أيضاً ما تفرق من الهموم. قد يحمل الإنسان في صدره خلال النهار أثقالاً متباعدة، فإذا وضع رأسه على فراشه اجتمعت عليه دفعةً واحدة؛ الندم على الأمس، والخوف من الغد، والكلمة التي آلمته، والوجه الذي يفتقده، والمسؤولية التي لا يعرف كيف ينهض بها. كأن الليل يسق أحزان الروح كما يسق الأجساد إلى مواضعها.

لكن المؤمن لا يرى في هذا الاجتماع حصاراً محضاً؛ فالليل الذي يجمع همومه يفتح له باباً إلى من يجمعها عنه. حين تضيق به الأسباب، يعلم أن رب الليل لا ينام، وأن الذي أودع السكينة في ظلامه قادرٌ على أن يُزِلها في قلبه. وما أجمل أن يتحول اجتماع الهموم إلى

اجتماع على باب الله؛ فيرفع العبد ما تفرق من حاجاته في دعاء واحد، ويضع ضعفه كله بين يدي القوي.

ومن معاني المشهد أن ما تفرق في الدنيا سيُجمع. الأجساد التي بعثتها الأرض، والأجيال التي فرّق بينها الزمن، والأعمال التي توزعت على أيام العمر، سيجمعها الله في موعدها. كما يوسق الليل ما يدخل في ستره، يجمع يوم القيامة ما توهم الإنسان أنه تلاشى. لقد مرّت في السورة صورة الأرض وهي تُلقِي ما فيها، وها هو الليل يُذكر بما جمع، لتبقى فكرة الجمع حاضرة في الوعي: لا شيء يخرج من سلطان الله لأنه تفرّق، ولا عمل يضيع لأنه تقادم، ولا إنسان يفلت لأنه صار تراباً.

والذي جمع ذرات الإنسان أول مرة قادرٌ على أن يجمعها بعد الموت، والذي يجمع الظلام على أقطار الأرض كل ليلة لا يعجزه أن يجمع الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد. إن استبعاد البعث ينشأ من قياس قدرة الله على قدرة الإنسان؛ فالإنسان يعجز عن جمع ما تفرق، فيتوهم أن التفرق نهاية، أما الله فلا تختلف في قدرته بداية الشيء وإعادته.

القمر حين يبلغ تمامه

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾؛ أي إذا اجتمع نوره واكتمل وصار بدرًا. كان هلالاً رقيقاً يكاد يضيع في صفحة السماء، ثم أخذ يزداد ليلةً بعد ليلة، حتى استدار ضوؤه وبلغ تمامه. وما بين الهلال والبدر قصة صامتة عن التدرّج؛ فلا القمر يقفز إلى كماله دفعةً واحدة، ولا الناظر المستعجل يستطيع أن يرى حركته في لحظة، لكن الليالي تجمع الزيادة الخفية حتى يظهر الاكتمال.

هذا التدرج من سنن الله في خلقه؛ فالحبة لا تصبح شجرةً في يوم، والطفل لا يبلغ رشده في قفزة، والعلم لا يدخل القلب كاملاً من مجلسٍ واحد، والإيمان نفسه يتمو بالطاعات والمجاهدات والابتلاءات. وما يفعله الإنسان في يومٍ قد يبدو ضئيلاً، لكنه حين يتكرر يصنع طوراً جديداً من أطوار شخصيته؛ نظرةٌ تتبعها نظرةٌ قد تنسج ظلاماً في القلب، وذكرٌ يتلوه ذكرٌ قد يجمع فيه نوراً، وتنازلٌ صغيرٌ عن المبدأ قد يهيئ لانهيارٍ كبير، ومقاومةٌ خفيةٌ للهوى قد تبني روحاً لا تشتريها الدنيا.

إننا نرى البدر ولا نرى كل زيادةٍ صغيرةٍ صنعته، كما نرى الإنسان عند سقوطه أو نهوضه ولا نرى الخطوات الخفية التي قادت به إلى ذلك. ولذلك لا ينبغي الاستهانة بالأعمال الصغيرة؛ فالأطوار الكبرى لا تظهر فجأةً، وإنما تنضج في الخفاء. كل عادةٍ مستقبليٌّ يبنى، وكل تكرارٍ مسارٍ يتعمق، وكل يومٍ يضيف إلى الروح ضوءاً أو يسلب منها شيئاً.

وفي ﴿اَسْقَ﴾ معنى الاجتماع والانتظام؛ فقد اكتمل نوره واتسقت صورته. وهذا الاتساق ليس استقلالاً عن الله، بل أثرٌ من آثار تقديره؛ فالقمر لا يملك نوره، ولا يختار منازلَه، ولا يحدد لحظةَ تمامه، وإنما يجري وفق الحساب الذي وضعه خالقه. جماله وليد الطاعة، واتساقه ثمرة التزامه بالمدار الذي قُدِّر له.

كم يتعب الإنسان لأنه يريد اتساق حياته خارج المدار الذي خلقه الله له؛ يطلب طمأنينةً بلا إيمان، وكرامةً بلا حق، وحجاً بلا مسؤولية، ونجاحاً بلا أمانة، ثم يتعجب من اضطرابه. إن القلب لا يكتمل نوره إلا حين ينتظم حول مركزه الصحيح؛ فإذا جعل الله غايته، وضعت الأشياء في مواضعها، أما إذا جعل شهوته مركزاً، أخذت حياته تدور حول فراغٍ لا يشبعها.

ولا يعني الاتساق أن المؤمن يخلو من النقص؛ فالقمر الذي اكتمل سيبدأ بعد ذلك في النقصان، وهذه سنة الأتوار. ليس الكمال الدنيوي مقاماً ثابتاً، ولا يستطيع الإنسان أن يقبض على لحظة القوة ويمنعها من العبور. لكن حكمة المؤمن أن يعرف وظيفة كل طور: إذا أُعطي شكر، وإذا نُقص منه صبر، وإذا أشرق تواضع، وإذا أحاط به الظلام تذكر أن للظلمة أجلاً.

القسم الذي يكشف قانون الرحلة

بعد هذه المشاهد الثلاثة يأتي جواب القسم: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾. إن الشفق والليل والقمر ليست صوراً متجاوزةً للجمال فحسب، بل شهودٌ كونيون على قانون التحول. كما ينتقل الأفق من نهارٍ إلى شفق، ومن شفقٍ إلى ليل، وكما ينتقل القمر من هلالٍ إلى بدر، سينتقل الإنسان من حالٍ إلى حال، ومن طورٍ إلى طور؛ فلا مقام له يثبت عليه، ولا صورة تبقى له إلى الأبد.

والخطاب يشمل الإنسان في رحلته الكبرى: نطفةً، فجنيناً، فطفلاً، فشاباً، فشيخاً، ثم ميتاً في قبره، ثم مبعوثاً واقفاً في المحشر، ثم منتهياً إلى مصيره. كل مرحلةٍ تبدو له حين يدخلها عالماً كاملاً، ثم لا تلبث أن تنطوي لتدفعه إلى ما بعدها. حين كان طفلاً ظن الطفولة هي الحياة، ثم صارت ذكرى؛ وحين اشتد شبابه ظن القوة صفةً ملازمة، ثم أخذ الوهن يكتب سطره في الجسد؛ وحين عاش بين أهله ظن الاجتماع ثابتاً، ثم دخل الفراق من بابٍ لم يستأذن.

إن الإنسان كائنٌ يطلب الثبات في عالمٍ بُني على التحول؛ يتعلق بصورة نفسه، وبمكانه، وبأحبته، وبما ألفه، ثم يتألم حين تتحرك الحياة وفق طبيعتها. والآية لا تقسو عليه حين تجربته

بالتبدل، بل تحرره من وهم الاستقرار؛ فمن عرف أنه راكبٌ طبقاً عن طبقٍ لم يبن قلبه في محطة، ولم يظن أن طوراً عابراً هو تعريفه الأخير.

قد يركب الإنسان طبقاً من النعمة بعد الشدة، أو من الشدة بعد النعمة، ومن الغنى بعد الفقر، أو من العافية بعد المرض، ومن الأُنس بعد الوحشة. وفي كل انتقالٍ يُسأل قلبه: هل يعرف الله في الحالين؟ فالإيمان الذي لا يعيش إلا في طور الرخاء هشّ، والصبر الذي لا يتحول إلى شكرٍ عند الفرج ناقص، والعبد الصادق لا يعبد الحالة التي يحبها، بل يعبد رب الحالات كلها.

هناك من يعرف الله حين يفقد ثم ينساه حين يجد، ومن يدعوه حين ينكسر ثم يستغني حين ينجز. أما من فقه ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ فيعلم أن الفرج طورٌ كما أن الضيق طور، وأن القوة عابرةٌ كما أن الضعف عابر، فلا ييأس في الانخفاض، ولا يغتر في الارتفاع؛ لأنه يرى يد الله تقوده عبر الأطوار، ويبحث في كل حالٍ عن العبودية التي تليق بها.

وقد تحمل الآية أيضاً معنى ركوب الأهوال المتتابعة يوم القيامة؛ حالاً بعد حال، وشدةً بعد شدة، حتى يستقر كل إنسانٍ في مصيره. فكما لم يستطع أن يوقف تحولات الدنيا، لن يستطيع أن يوقف انتقالات الآخرة. سيخرج من قبره، ويقف للحشر، ويعرض للحساب، ويتلقى اللّاب، ويعبر إلى النهاية. ليست القيامة لحظةً عابرة، بل أطوارٌ تتكشف فيها الحقائق، وكل طورٍ منها أعظم مما قبله.

وهذا المعنى يعيدنا إلى الكدح: فالإنسان لا يكدح في أرضٍ ساكنة، بل يكدح وهو يتغير، ويتغير حوله الظروف، ثم يلقي الله بعد أن عبر كل تلك الطبقات. قد يكون اليوم في طورٍ لا يفهمه، لكنه ليس مطلوباً منه أن يحيط بالخطّة كلها؛ يكفيهِ أن يعبد الله في الطبقة التي

هو فيها، وأن يؤدي واجب اللحظة، وأن يثق بأن الذي نقل القمر إلى اتساقه، وأخرج الليل من الشفق، قادرٌ على أن يقوده في تحولاته دون أن يضيعه.

لا تجعل الطورَ العابرَ حكماً نهائياً

من رحمة هذه الآية أنها تهدم الأحكام المتعجلة التي يصدرها الإنسان على نفسه وحياته. قد يمر بطبقٍ من الحزن، فيظن أن الفرح انتهى من العالم؛ أو يمر بطبقٍ من العجز، فيحسب أن قدرته لن تعود؛ أو يزل، فيتوهم أن السقوط صار هويته الأخيرة. لكن ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ تقول له: لا تحكم على الرحلة من محطة، ولا على الكتاب من فصل، ولا على السماء من لحظة شفق.

كم من ظلمةٍ كانت رحماً لفجرٍ لم يظهر بعد، وكم من فقدٍ فتح في الروح باباً إلى معرفةٍ لم تكن تبلغها في زمن الامتلاء، وكم من انكسارٍ أعاد الإنسان إلى ربه بعدما أعياه التيه في قوته. وليس معنى ذلك أن كل ألمٍ يُعرف سره في الدنيا، أو أن الإنسان يملك تفسير المقادير تفصيلاً، بل معناه أن الحال الحاضرة ليست الإطار النهائي لحكمة الله.

وفي المقابل، لا تجعل طور النعمة حكماً أبدياً بالأمان؛ فالقمر المكتمل يبدأ في النقص، والشفق الجميل يتبعه الليل، والقوة تحمل في أعماق الجسد بذرة الضعف. من ظن أن مكانته أو ماله أو صحته تعصمه من التحول عاش مغروراً بما لا يملك. وحين تتغير الحال، لا يكون الألم في فقد النعمة وحدها، بل في سقوط الوهم الذي بناه حول دوامها.

إن المؤمن يستمتع بالجمال دون أن يعبد، ويشكر النعمة دون أن يظنها حقاً مضموناً، ويجب الناس دون أن ينسى أنهم لله، ويقيم في المكان دون أن يجعل جذور روحه فيه؛ لأنه يعرف

أن الحياة تنقله، وأن الغاية ليست الاحتفاظ بكل ما مر به، بل الوصول إلى الله وقد أحسن العبور.

التحول الأعظم

كل تحولات الدنيا تهيئةً للتحول الأكبر: الانتقال من دار العمل إلى دار الجزاء. قد يغير الإنسان بيته، وعمله، وبلده، وهيئته، وأفكاره، ويظن أن تلك هي التحولات الكبرى، لكنها تظل صغيرة أمام اللحظة التي يخلع فيها الجسد، ويغادر عالم الشهادة إلى البرزخ، ثم يقوم لرب العالمين.

الموت ليس حادثَةً تطرأ على هامش الحياة، بل الطبقة الذي تسير إليه سائر الأَطوار، وليس نهاية الإنسان، بل نهاية قدرته على تعديل اتجاهه. قبل الموت يركب الإنسان الأَطوار وهو قادرٌ على التوبة والعمل، وبعده يركبها محمولاً إلى النتيجة التي صنعها. ومن هنا كانت قيمة اللحظة الحاضرة؛ فهي الطبقة الوحيد الذي يملك فيه أن يغير ما سيأتي بعده.

قد لا يملك الإنسان إيقاف شيبه، لكنه يملك أن يجعل الشيب وقاراً في طاعة الله أو زيادةً في الغفلة. لا يملك منع المرض، لكنه يملك صبره ورجاءه. لا يملك بقاء الأُحبة، لكنه يملك أن يحبهم لله ويؤدي حقوقهم قبل الفراق. لا يملك منع الموت، لكنه يملك أن يستعد له. إن حريته ليست في السيطرة على الأَطوار، بل في اختيار عبوديته داخلها.

وحين يدرك الإنسان أنه ينتقل طبقاً عن طبق، يتصالح مع ضعفه من غير أن يستسلم له؛ يعرف أنه ليس إلهاً يتحكم في حركة الوجود، بل عبدٌ يسير في تقدير الله. وهذه العبودية لا تسلبه كرامته، بل ترده إلى موضعها الصحيح؛ فكرامته ليست في تثبيت العالم على هواه، بل في أن يظل وفياً للحق والعالم يتغير من حوله.

إن أعظم الثبات ليس أن تبقى الأحوال كما نحب، بل أن يبقى القلب مع الله مهما تبدلت الأحوال. أن تعرفه في شفق النهايات، وتأنس به في ليل الوحشة، وتشكره عند اتساق القمر، ثم تمضي معه من طبقٍ إلى طبق، حتى تبلغ الطبق الأخير وتجد أن اليد التي دبرت تحولاتك كلها لم تفارقك لحظة.

وهكذا يصبح الشفق رسالة، والليل شاهداً، والقمر برهاناً، والعمر رحلةً متصلةً الحلقات. لا شيء يبقى على صورته، لكن كل شيء يسير إلى موعده. والإنسان الذي يغتر بحاله الراهنة يشبه من رأى الشفق فظنه نهاراً لا يغرب، أو رأى البدر فظنه نوراً لا ينقص؛ أما المؤمن فيقرأ وراء الصورة قانونها، ووراء التحول مدبره، ووراء الطريق نهايته.

إننا نركب الأطوار جميعاً، لكن السؤال الذي تحمله السورة ليس: هل سنتحول؟ بل: ماذا سيبقى منا ونحن نتحول؟ هل يبقى الإيمان حين تبدل النعم؟ هل يبقى الصدق حين تتغير المصالح؟ هل يبقى الوفاء حين يغادر الناس؟ هل يبقى القلب متجهاً إلى الله حين تنشق السماء التي أظلمت، وتمتد الأرض التي حملته، وينتهي كدحه إلى اللقاء؟

هناك، عند نهاية الأطوار، لن تنفع الصورة التي مررنا بها، بل الحقيقة التي استقرت فينا. سيمضي الشفق والليل والبدر، وتمضي الطفولة والشباب والشيخوخة، وتنطوي الصحة والمرض والغنى والفقر، ولا يبقى إلا ما صنعته هذه الأطوار في القلب، وما كتبه الإنسان خلالها في كتابه. فطوى لمن تغيرت به الأحوال ولم تغر وجهته، وركب طبقاً عن طبق، وفي كل طبقٍ كان أقرب إلى الله من الذي قبله.

مَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟ حِينَ تَقِفُ الْفِطْرَةَ أَمَامَ سُؤْلِهَا الْأَخِيرِ

قال الله تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۖ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

بعد أن أقسم الله بالشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، وقرر أن الإنسان راكب طبقاً عن طبق، يأتي السؤال الذي لا يبدو استفهاماً يطلب معلومة، بل تعجباً من حال فقدت مبرراتها: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ ما الذي بقي ليحول بين الإنسان وبين الإيمان، وقد تكلم الكون من حوله، وتكلم العمر في داخله، وتكلم المصير أمامه؟ أيُّ ستارٍ يستطيع أن يصمد بعد أن أحاطت به الآيات من فوقه ومن تحته، وفي ليله ونهاره، وفي بدايته ونهايته؟

لقد بدأت السورة بالسماء حين تنشق، وبالأرض حين تمتد وتلقي ما فيها، ثم خاطبت الإنسان بكده الذي ينتهي إلى الله، وأرته كتابه وحسابه ومصيره، ثم أعادته إلى مشاهد السماء الهائلة ليرى قانون التحول مكتوباً في الشفق والليل والقمر. وبعد هذا كله لا يعود السؤال: أين الدليل؟ بل: ما الذي أصاب القلب حتى لم تعد الأدلة تبلغه؟

فالكون قائمٌ على الإذعان، والإنسان وحده ينازع في التسليم؛ السماء أذنت لربها وحُقت، والأرض أذنت لربها وحُقت، والقمر يبلغ اتساقه في المدار الذي قدّره الله، والليل يجمع ما

أمر أن يجمع، أما الإنسان الذي أُعطي عقلاً وقلباً وإرادة، فيرى هذا السجود الكوني كله ثم يظل متردداً عند عتبة الإيمان. وكأن السورة تُشعره بغرابة موقعه: كيف يخرج وحده عن اللحن الذي يسبّح به الوجود؟

حين يصبح غيابُ الإيمان هو الأمرُ المستغربُ

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ إن تركيب السؤال يجرّد الكفر من مظهره الذي يحاول أن يتزّن به. فقد يبدو الإنكار في بعض العصور موقفاً فكرياً متعالياً، وقد يرتدي لغة الفلسفة أو العلم أو الحرية، لكن القرآن يرده إلى بساطته العارية: ما لهم؟ ما العلة التي جعلتهم يعرضون عن الحقيقة الظاهرة في الخلق والفطرة والوحي؟ أهو نقص البرهان، أم مرض الإرادة؟ أهي غفلة العين، أم استتجار القلب؟

إن الإيمان في المنظور القرآني ليس قفزةً في فراغ، بل استجابة الكائن لحقيقة تحيط به، فالإنسان لم يخلق نفسه، ولم يختر زمن مجيئه، ولم يصنع الأرض التي تحملها، ولا السماء التي تظله، ولا القلب الذي ينبض في صدره. يعيش كل لحظةٍ على عطايا لم يُنشئ أصلها، ثم يتصرف كأن الاعتراف بالمنعم عبءٌ زائدٌ على وجوده.

ولو وقف المرء مع نفسه لحظة صدق، لوجد أن وجوده كله سؤالٌ لا يجيب عنه إلا الله. لماذا وُجد بدلاً من ألا يوجد؟ من أودع فيه هذا الوعي الذي يتجاوز المادة ويسأل عن الغاية؟ لماذا يطلب العدل الكامل في عالمٍ لا يتحقق فيه كاملاً؟ ولماذا يتطلع إلى الخلود وهو يرى الموت يطوي كل حي؟ إن في الإنسان عطشاً لا ترويه الدنيا، لأن هذا العطش لم يُخلق ليقوده إلى الدنيا وحدها، بل ليدله على ما وراءها.

ومع ذلك، قد يعيش الإنسان قريباً من كل الأدلة وبعيداً عن نتيجتها؛ فالقرب الحسي لا يساوي قرب القلب. يرى السماء كل يوم ولا يرى آيتها، ويمر بالمقابر ولا يسمع موعظتها، ويشعر بأن عمره يتناقص ثم يتعامل مع الموت كأنه خبر يخص الآخرين. ليست المشكلة أن العلامات خفية، بل أن الألفة غطتها؛ إذ يعتاد المرء المعجزة حتى يسميها عادة، ويعتاد النعمة حتى يظنها حقاً، ويعتاد الحياة حتى ينسى أنها هبة لها أجل.

إن القلب إذا أصر على الغفلة يستطيع أن يحول أعظم الأدلة إلى مشاهد عابرة. وليس أخطر على الإيمان من أن يألف الإنسان كل شيء فلا يندهش بشيء؛ لأن الدهشة الصافية باب السؤال، والسؤال الصادق باب المعرفة، والمعرفة الخاشعة باب الإيمان. أما حين يغلق المرء هذا الباب، فلا يعود الكون أمامه آية، بل يتحول إلى مخزنٍ للمنافع، وينظر إلى الأرض ليسأل ماذا يأخذ منها، لا ماذا تقول له عن خالقها.

القرآن حين يُتلى: امتحان القلب لا الأذن

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾. تنتقل السورة من آيات الكون إلى آيات الكتاب؛ كأن الله يقول: إن لم توقظهم السماء والأرض والشفق والليل والقمر، فهذا القرآن يفسّر لهم ما يرون، ويكشف لهم ما لا يرون، فلماذا إذا تلى عليهم لا يخضعون؟

والسجود هنا ذروة الاستجابة؛ لأن الإنسان حين يسجد يضع أشرف ما فيه، وجهه، على الأرض اعترافاً بأن العظمة لله وحده. إنه لا يقدم فكرة مجردة، بل يقدم ذاته كلها؛ يطأ طي الجبهة التي تعلو بها صورته بين الناس، ويكسر وهم الاستقلال، ويعلن بجسده ما آمن به قلبه: أنا عبد، وأنت ربّي.

والآية موضع سجدة تلاوة؛ فيلتقي المعنى بالفعل، ولا تبقى الاستجابة شرحاً لغوياً للسجود. كأن القرآن لا يريد من القارئ أن يمر على سؤال السجود وهو واقفٌ في مقام المتفرج، بل يدعوه أن يجيب بجهته. هناك آياتٌ لا يكتمل تلقؤها بالكلام، بل تحتاج إلى هيئةٍ من العبودية؛ وحين ينحني الجسد، يُرجى أن يلحق به القلب.

لكن الآية لا تحصر معناها في حركة الجسد وحدها؛ فكم من جسدٍ سجد والقلب واقفٌ في كبريائه، وكم من جهةٍ لامست الأرض ولم يلامس معنى القرآن قرار النفس. السجود المقصود هو خضوع الظاهر والباطن؛ أن تنزل الآية على إرادة الإنسان فتغيرها، وعلى موازينه فتعيد ترتيبها، وعلى هواه فترده إلى الحق.

إن القرآن لا يطلب أن نُعجب ببلاغته فحسب، ولا أن نزين مجالسنا بتلاوته، ولا أن نجعله صوتاً حزيناً يمر على الوجدان ثم يترك السلوك كما كان. القرآن نزل ليُطاع، وكل تلاوةٍ لا توقظ سؤال العمل قد تتحول مع الزمن إلى حجابٍ من الألفة. فقد يأنس الإنسان بالصوت، ويحفظ الآيات، ويتقن الحديث عنها، بينما تظل خصوماته وأمواله وعلاقاته ومواقفه بعيدةً عن سلطانها.

والمشكلة ليست في أن القرآن لم يصل إلى الأذن، بل في أنه وصل ثم لم يقع السجود. وهذا أشد؛ لأن الحجة قد قامت، والكلمات التي تستطيع أن تحيي القلب مرّت به، لكنه اختار أن يبقى بينه وبينها جداراً. يسمع الحديث عن الحساب، ثم يعود إلى الظلم؛ ويسمع عن الكدح إلى الله، ثم يستنفد كدحه فيما يفنى؛ ويسمع عن الكتاب، ثم يكتب يومه كأن لا صحيفة تنتظره.

إن القرآن مرآة لا تسمح للإنسان أن يحتفظ بصورته المزيفة طويلاً؛ ولهذا قد يهرب منه من لا يريد أن يرى نفسه. إنه لا يكفي بأن يخبرك عن الجنة والنار، بل يكشف مواضع المرض فيك، ويضع أصبعه على الكبر والحسد والنفاق والشهوة والجبن، ويطلب منك أن تتغير. ومن هنا تكون مقاومة القرآن أحياناً مقاومةً للحقيقة التي يكشفها عن النفس، لا اعتراضاً على عباراته فحسب.

والسجود هو الجواب الصحيح؛ لأن من عرف نفسه في ضوء القرآن لم يجد موضعاً يليق به أكثر من الأرض بين يدي الله. ليس السجود إهانةً للإنسان، بل تحريراً له من العبوديات التي تهينه؛ فمن لم يسجد لله سجد لهواه، أو لصورته، أو للناس، أو للمال، أو للخوف. الجبهة لا تبقى بلا قبلةٍ معنوية؛ فإن لم تتجه إلى الله، اتجه القلب بها إلى شيءٍ من خلقه.

من التردد الظاهر إلى التكذيب الكامن

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾. تزجج ﴿بَل﴾ ستار التعللات، وتكشف أن الأمر أعمق من حيرةٍ فكريةٍ عابرة. إنهم يكذبون بالوحي والبعث والحساب، ويواجهون الحقيقة بالرد لا بالطلب الصادق للبيان. فالسؤال السابق كشف غرابة غياب الإيمان، وهذه الآية تكشف سببه في فريقٍ منهم: ليس الدليل هو المفقود، بل الاستعداد للقبول.

والتكذيب فعلٌ مستمر؛ فلم يقل: كذبوا وانتهى، بل ﴿يَكْذِبُونَ﴾، كأنهم يجددون موقفهم كلما جاءتهم آية. كل شاهدٍ جديدٍ يستقبلونه بطبقةٍ جديدةٍ من الإنكار، حتى يصبح التكذيب عادةً نفسيةً تحرس نفسها؛ فلا يبحث الإنسان عن الحقيقة، بل يبحث عما يؤكده قراره السابق برفضها.

وهكذا يستطيع الهوى أن يوظف العقل في غير غايته؛ بدل أن يكون وسيلةً لمعرفة الحق، يتحول إلى محامٍ يدافع عن الرغبة. يبدأ الإنسان بما يريد، ثم يجمع له من الحجج ما يجعله يبدو صحيحاً. فإذا أحب شهوةً سهّل لنفسه تأويل ما يحرمها، وإذا كره تكليفاً بالغ في إثارة الشبهات حوله، وإذا تعارض الحق مع مكانته بحث عن صياغةٍ تحفظ مكانته ولو ضيّعت الحقيقة.

ليس كل سؤالٍ تكذيباً، ولا كل حيرةٍ كفرًا؛ فالقرآن نفسه يدعو إلى النظر والتفكير، ويخاطب العقل ويقيم الحجّة. لكن الفرق كبيرٌ بين من يسأل ليفهم ومن يسأل ليهرب، وبين من يبحث عن الحقيقة ولو خالفت هواه ومن يبحث عن مخرجٍ يحمي به هواه من الحقيقة. السؤال الصادق يفتح صاحبه على الجواب، أما السؤال المتعنت فيغيّر شكله كلما جاءه جواب.

والتكذيب لا يبقى محصوراً في قضية الاعتقاد، بل يعيد تشكيل الحياة كلها؛ فن كذب بالحساب عاش كأن القوة بلا مساءلة، ومن كذب بالكتاب استخف بما يكتبه من أفعال، ومن كذب بالرجوع جعل الدنيا غايته، ومن كذب ببصر الله احتّمى بالخلوة ليصنع ما يستحي أن يصنعه أمام الناس. العقيدة ليست فكرةً منعزلة، بل جذرٌ تنبت منه السلوكيات والموازين.

الأوعية الخفية

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. يا لها من كلمة تكشف باطن الإنسان كما كشفت الأرض ما في باطنها: يُوعُونَ أي يجمعون ويضمرون في صدورهم من التكذيب والعداوة والنوايا والأعمال. فالإنسان وعاءٌ، والعمر يملأه، والقلب لا يظل فارغاً؛ يختزن ما يكرهه، ويحفظ ما يحبه، وتتراكم فيه المواقف حتى تصنع حقيقته.

قد يُظهر الإنسان سبباً لإعراضه ويخفي سبباً آخر؛ يتحدث عن نقص البرهان بينما في داخله خوفٌ على مصلحة، أو كراهيةٌ لتكليف، أو حسدٌ لمن جاء بالحق، أو كبرٌ يمنعه من الاعتراف. والناس لا يرون إلا الحجّة المعلنة، أما الله فيعلم ما وراءها، ويعرف متى يكون الاعتراض بحثاً عن اليقين، ومتى يكون ستاراً على رفضٍ سابق.

إننا نعي في صدورنا أشياء كثيرة لا يعرفها أقرب الناس إلينا؛ كلماتٌ كظمناها، ونوايا عدلنا عنها، ورغباتٌ نجعل من ظهورها، ومراراتٌ تركناها تراكُم في الظلام. وقد ننصح في تقديم صورةٍ منسقة للعالم، لكن الله يعلم ازدحام الداخل كله؛ لا تختلط عليه الدوافع، ولا تتخذه اللغة التي نَجَل بها أنفسنا.

وفي التعبير تهديدٌ للكذب، لكنه للمؤمن باب مراقبةٍ وتطهير. فإذا كان الله أعلم بما نُوعي، فليس المهم أن ننظف صورتنا الخارجية وحدها، بل أن نراجع ما نجعله في القلوب. ماذا وعى القلب من لقاءات اليوم؟ حسداً أم دعاء؟ ضغينةً أم عفواً؟ تعلقاً بالثناء أم إخلاصاً؟ هل صار مخزناً لجراح يعيد إنتاجها، أم موضعاً تمر فيه الآلام ثم يغسلها اليقين؟

القلوب أوعية، وأشرفها أوعاها للقرآن، وأشدّها خراباً ما امتلأ بالكذب حتى لم يترك للنور موضعاً. وليس امتلاء القلب حدثاً مفاجئاً؛ إنما تبدأ المسألة بخاطرةٍ يُسمح لها بالبقاء، ثم تتكرر، ثم تتحول إلى ميل، ثم إلى موقف، ثم إلى طبيعةٍ تحكم النظر. ولهذا كان الذكر تجديداً لمحتوى القلب، وكانت التوبة إفراغاً لما أفسده الذنب، وكان القرآن نوراً يعيد ترتيب ما وعته النفس من الدنيا.

والله أعلم بما يُوعي المؤمن أيضاً؛ يعلم إيمانه الذي لم يحسن التعبير عنه، وصبره الذي أخفاه كي لا يشكوره إلى الناس، ومعركته التي يخوضها في داخله ولا يصفق له فيها أحد. قد

يراه الناس ثابتاً ولا يعرفون كم قاوم حتى يثبت، أو يرونه ضعيفاً ولا يعرفون كم مرة نهض من سقوطه. إن علم الله بالباطن ليس رهبةً فقط، بل عدالةً ورحمةً؛ لأنه لن يُنقص أحداً لأجل خيرٍ لم يره الخلق، ولن يخدع بظاهرٍ جميلٍ يخفي وراءه الفساد.

البشارة التي انقلب معناها

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. تستعمل الآية لفظ البشارة، وهو في أصل استعماله لما يسرّ، في سياق العذاب؛ زيادةً في التهمك بحال من كان ينتظر الأخبار التي توافق هواه، ويرفض إنذار القرآن. ليس له بعد إصراره إلا خبرٌ يظهر أثره على بشرته، لكنه أثر الألم لا الفرح.

لقد جاءهم القرآن ببشارة الرحمة إن آمنوا، وباب التوبة إن رجعوا، ووعد الأجر إن عملوا، فاختاروا التكذيب؛ فانقلبت البشارة التي كان يمكن أن تكون جنةً إلى إنذارٍ بالعذاب. ليس لأن الله منعهم طريق النجاة، بل لأنهم أعرضوا عنه بعدما ظهر، وآثروا الاطمئنان الكاذب على الخبر الصادق.

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ والألم جزاءٌ يناسب القلوب التي لم تتألم لبعدها عن الله، ولم يوجعها التكذيب، ولم تهتز وهي تسمع القرآن. هناك آلامٌ في الدنيا تكون علامة حياة القلب؛ ألم الندم بعد الذنب، وألم الخوف من التقصير، وألم رؤية الظلم، وألم الشوق إلى رضا الله. من فقد هذه الآلام النافعة قد يلقي الألم الذي لا ينفع بعده ندم.

إن القلب الحي يتألم الآن كي ينجو هناك؛ يتألم حين يكتشف عيبه، لكنه يحول الألم إلى توبة، ويتوجع من ظلمه، فيرد الحق، ويخشى المصير، فيحسن الاستعداد. أما القلب الميت فيطلب راحةً من كل مراجعة، ويعدّ الموعظة تنغيصاً، والنصيحة اعتداءً على سلامه النفسي، حتى يحافظ على راحته القصيرة ويفقد سلامه الأبدي.

الاستثناء الذي تفتح به الرحمة أبوابها

ثم لا تنتهي السورة بالعذاب، ولا تترك قارئها عند الحافة المظلمة، بل تفتح الاستثناء العظيم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. بعد أن كان الخطاب عن الذين لا يؤمنون ولا يسجدون ويكذبون، يخرج من بينهم فريقٌ استجاب: آمن قلبه، وسجدت إرادته، وصدق عمله ما عرفه من الحق.

الإيمان هنا ليس دعوى معلقة في اللسان، ولذلك عطف عليه العمل الصالح. فالحقيقة التي تدخل القلب ولا يظهر لها أثر في السلوك تحتاج إلى مراجعة؛ لأن النور إذا دخل مكاناً غير صورته. والعمل الصالح ليس بديلاً عن الإيمان، بل ثمرته وشاهده؛ والإيمان ليس فكرة تزين العمل، بل الروح التي تمنحه وجهته وقبوله.

وجمع القرآن بينهما ليقم توازن الإنسان: قلبٌ يصدق، وجوارح تعمل؛ باطنٌ يتجه إلى الله، وظاهرٌ يعمر الأرض بالخير. فمن أراد إيماناً بلا عمل حوله إلى أمنية، ومن أراد عملاً بلا إيمان قطع عنه المعنى الذي يصله بالله والدار الآخرة. الكمال في أن يكون الاعتقاد أصلاً، والعمل غصناً، والإخلاص ماءً يسري بينهما.

والصالحات جمعٌ يفتح أبواب الخير كلها؛ الصلاة، والصدق، والعدل، وبر الوالدين، والرحمة، وكف الأذى، وحفظ الحقوق، وإصلاح ما أفسده الناس، والكلمة التي ترفع قلباً، والمقمة التي تسد جوعاً، والتوبة التي تصلح ما بين العبد وربّه. ليس العمل الصالح محصوراً في مشهد واحد، بل كل فعلٍ وافق شرع الله وأريد به وجهه وكان نفعاً أو دفعاً للضرر.

والسورة التي بدأت بالكون المنقاد تختم بالإنسان المؤمن العامل؛ كأن الإيمان يعيد الإنسان إلى اتساقه مع الوجود. فالسماء أذنت لربها، والأرض أذنت لربها، والمؤمن آمن وعمل؛ استمع الوحي كما استمعت السماء للأمر، وخضع كما خضعت الأرض، ودخل في موكب العبودية بدل أن يبقى نشازاً في كونٍ ساجد.

أجرٌ لا يُقطع ولا ينقص

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. تختم السورة بهذه العبارة المضيئة بعد مشاهد الانشقاق والكبح والكتاب والحساب والتكذيب. غير ممنون: غير مقطوع ولا منقوص، دائماً لا ينفد، وعطاءٌ لا يتبعه ما يكدره. ففي الدنيا كل أجرٍ معرضٌ للانقطاع؛ ينتهي بانتهاء العمل، أو ينقص بتغير الأحوال، أو يزول بموت صاحبه. أما أجر الله فلا يخضع لقانون الفناء الذي يحكم الدنيا.

كان الإنسان كادحاً في طريقٍ محدود الأعوام، فأعطاه الله أجراً لا تحده الأعوام. صبر وقتاً، فكوفئ بما لا ينتهي؛ ترك شهوةً عابرة، فأعطى سروراً مقيماً؛ سجد لحظاتٍ في الليل، ففتح له نوراً لا يغيب؛ عاش عمراً قصيراً مؤمناً، فأكرمه بحياةٍ لا يقطعها موت. هنا يتجلى فضل الله: فالعمل منقطع، والأجر غير منقطع؛ والطاعة محدودة، والنعيم غير محدود.

وليس الأجر غير مقطوع فحسب، بل لا يتبعه من يؤذي صاحبه. فعطاء البشر قد يثقل بتذكيرهم به، وربما تحولت النعمة في يد المعطي إلى قيدٍ في عنق الآخذ؛ أما الله فهو الذي هدى العبد للعمل، وأعاناه عليه، ثم قبله منه، ثم ضاعف أجره، ثم أبقاه له. العبد هو المحتاج في كل مرحلة، ومع ذلك يعامله الكريم بما يفوق استحقاقه، فلا يرى في الجنة إلا الفضل.

وما أجمل المقابلة بين ﴿غَيْرِ مَمْنُونٍ﴾ وبين عالم الانشقاق والتغير؛ فالسماء تنشق، والأرض تبدل، والشفق يزول، والليل يعقبه النهار، والقمر يكتمل ثم ينقص، والإنسان يركب طبقاً

عن طبق، لكن الأجر عند الله لا ينقطع. كل ما في الدنيا ينتقل ويتغير، إلا ثمرة الإيمان بعد أن يثبتها الله في دار الخلود.

لهذا لا يكون المؤمن خاسراً حين يبذل للدائم شيئاً من المنقطع. ما الذي فقدته من ترك لذة ستنتهي على كل حال، لينال أجراً لا ينتهي؟ وما الذي خسره من أنفق مآلاً سيغادره أو يغادره هو، فوجده عند الله محفوظاً؟ إن الخسارة الحقيقية أن يحتفظ الإنسان بما يفنى حتى يفنى معه، والرجح أن يحول العابر إلى باقٍ بالنية والعمل الصالح.

وهنا تستقر السورة بعد حركة عظيمة: انشقت السماء، وامتدت الأرض، وخرج الموتى، وسار الإنسان إلى ربه، وأعطيت الكتب، وتميزت المصائر، وتعاقت الأطوار، وسئل المكذبون، ثم وصل المؤمنون إلى أجرٍ غير ممنون. لقد كان الوجود كله يتغير كي تنكشف الحقيقة التي لا تتغير: أن الإنسان لربه، وأنه عائدٌ إليه، وأن ما كان لله بقي، وما كان لغيره انقطع.

فإذا مرَّ المؤمن بالانشقاقات حياته، وتصدعت حوله الصور التي اطمأن إليها، فليتذكر أن نهاية السورة ليست بالانشقاق، بل الأجر غير الممنون. وإذا أثقله الكدح، فليعلم أن التعب محدود، والجزاء غير محدود. وإذا شعر بالوحشة وهو يسجد في عالم لا يسجد، فليوقن أنه لم يكن وحيداً؛ السماء والأرض والشفق والليل والقمر كلها شواهد على العبودية، وأن الغريب الحقيقي ليس الساجد بين الغافلين، بل الإنسان الذي يقف مستكبراً في كونٍ كله خاضعٌ لله.

إن آخر كلمةٍ معنويةٍ في السورة ليست الفناء بل البقاء، وليست العذاب بل الأجر، وليست الانقطاع بل الدوام. وكأن الله يضع في نهاية الطريق مصباحاً لا ينطفئ، ليراه كل كادح

مؤمن، فيخفّ عنه ثقل المسير، ويعلم أن السجدة التي يؤديها اليوم لن تضيع، وأن الصبر الذي لا يعرف الناس قدره مكتوب، وأن كل خطوةٍ صالحةٍ تخرج من زمنها المحدود لتدخل في عطاء الله الذي لا ينفد.

فيا أيها الإنسان، إنك لا تستطيع أن توقف انشقاق السماء، ولا امتداد الأرض، ولا حركة العمر، ولا انتقالك من طبقٍ إلى طبق؛ لكنك تستطيع، ما دمت في دار العمل، أن تؤمن، وأن تسجد، وأن تصلح، وأن تملأ وعاء قلبك بما يحب الله. تستطيع أن تعمل اليوم لما يجعلك تتلقى كُتابك بيمينك، وتعال السرور الذي لا يعقبه ثبور، وتجتمع بالأهل الذين تنقلب إليهم في الجنة، وتحظى بالأجر الذي لا يقطعه موتٌ ولا يهدده زوال.

وهذا هو النداء الأخير الذي تتركه السورة في القلب: لا تخف من أن يتغير العالم، بل خف من أن يبقى قلبك على غفلته والعالم كله يقودك إلى اللقاء، ولا تحزن لأنك تركب من حالٍ إلى حال، بل احرص أن تكون في كل حالٍ عبدًا لله؛ ولا تجعل القرآن يمر على أذنك ثم يتركك واقفًا في موضعك، بل اسجد، واقترب، واكتب في صحيفتك الآن ما تتمنى أن تقرأه السماء.

حِينَ يَنْشَقُّ السِّرُّ وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْإِنْسَانُ وَعَمَلُهُ

انتهت سورة الانشقاق كما بدأت، لكن القلب الذي رافقها من أول آيةٍ إلى آخرها لا ينبغي أن ينتهي كما بدأ؛ فقد أخذته السورة من السماء حين تنشق، إلى الأرض حين تمتد، ثم أعادته إلى نفسه ليرى عمره كدحاً متصلاً، وإلى صحيفته ليدرك أن أيامه ليست زمناً يتبدد بل كتاباً يتكون، ثم أوقفته بين سرورين: سرورٍ قصيرٍ خدع صاحبه في الدنيا حتى دعاه في الآخرة إلى الثبور، وسرورٍ أبدي رجع به المؤمن إلى أهله بعد الحساب اليسير. وبعد ذلك رفعته إلى الشفق والليل والقمر، ليقراً في تحولات الكون قانون رحلته، ثم وضعته أمام القرآن يسأله: إذا كان الوجود كله قد أذن لربه وخضع، فلماذا لا يسجد الإنسان؟

إنها سورة الانكشاف الكبير، تنشق فيها السماء فينكشف ما وراء العالم المحسوس، وتمتد الأرض فتتكشف الأجساد التي خبأتها القبور، وتُنشر الصحف فتتكشف الأعمال التي سترتها الأيام، ويسأل الناس عن الإيمان فتتكشف مواقف القلوب من الحقيقة. فلا شيء يبقى مغلقاً في ذلك اليوم: لا سماءٌ تستر الغيب، ولا أرضٌ تستر الموتى، ولا جسدٌ يستر السرية، ولا لسانٌ يستطيع أن يصنع روايةً غير التي كتبها العمل.

ولعل هذا هو الخيط الذي يجمع مشاهد السورة كلها: لقد أمهل الإنسان في دنيا الستر، لكنه متجهٌ إلى يوم الكشف. يستره الجسد فلا يرى الناس خواطره، ويستره الزمن فتبتعد أخطاؤه في ذاكرة الأمس، ويستره المكان فيفعل في الخلوة ما لا يفعله في العلن، وتستره قدرته على الكلام فيبرر ما صنع ويعيد تشكيل صورته؛ لكنه حين يلقي الله يسقط الغلاف ويبقى

الكتاب، وتسقط الصورة وتبقى الحقيقة، وتسقط الحجة المصنوعة ويبقى ما وعاه القلب وما اقترفته الجوارح.

غير أن الستر في الدنيا لم يكن دائماً فرصةً للخطيئة، بل كان في أصله رحمةً وفرصةً للتوبة. ستر الله العبد كي يعود، ولم يفضحه كي يصلح، وأمله كي يعيد كتابة آخر الصفحة قبل أن يطوى الكتاب. فالذي يستر اليوم قادرٌ أن يستر يوم العرض إذا صدقت التوبة، والذي يعلم الخفايا لا يعامل التائب بما كان منه فقط، بل بما انتهى إليه قلبه من انكسارٍ وإنابة. ولهذا فإن السورة، على شدة مشاهدتها، لا تقود إلى اليأس؛ إنها توقظ الخوف الذي يفتح باب الرجاء، لا الخوف الذي يغلق الطريق.

لقد عرضت السورة علينا حقيقة الحياة في كلمة واحدة: الكدح. ولم تقل إن الإنسان قد يكدح أو لا يكدح، بل قررت أنه كادحٌ لا محالة. وهذه الحقيقة تنزع عن الدنيا زينتها الخادعة؛ فما من إنسانٍ إلا وهو يدفع من روحه وجسده ثمنًا لحياته، حتى الذين تبدو أيامهم مترفةً يحملون في دواخلهم خوف الفقد، وقلق البقاء، وجوع النفس إلى مزيدٍ لا يشبعها. إن الاختلاف بين الناس ليس في وجود الكدح، بل في الجهة التي يكدحون نحوها، والمعنى الذي يصنعونه من تعبهم، والكتاب الذي يتحول إليه هذا التعب.

من الناس من يكدح حتى يملك، ثم يموت ويترك ما ملك؛ ومنهم من يكدح حتى يُعرف، ثم يأتي جيلٌ لا يعرف اسمه؛ ومنهم من يكدح في إرضاء الناس، فلا يرضون عنه ولا يبقى له من سعيه شيء؛ ومنهم من يكدح إلى الله، فيحوّل كل لحظةٍ عابرة إلى أثرٍ خالد. يتعب في الصلاة، فيجد التعب نوراً؛ ويقاوم شهوته، فيجد المقاومة حربةً؛ ويصبر على البلاء، فيجد الصبر رفعةً؛ ويحسن إلى الناس، فيجد الإحسان محفوظاً عند من لا يضع فيه مثقال ذرة.

وهنا يتجلى الفرق بين كدح يستهلك الإنسان وكدح يبنيه؛ فالمعصية قد تتطلب جهداً، لكنها تترك صاحبها فارغاً كلما بلغ غايته، أما الطاعة فقد تثقل على النفس في أول الطريق، لكنها تملؤها كلما تقدمت. والكدح إلى الله لا يعني أن المؤمن يعيش بلا لذة، بل يعني أنه لا يشتري لذة عاجلةً بخسارة نفسه، ولا يجعل الراحة ميزانه الأعلى؛ لأنه يعلم أن الراحة الكاملة ليست من طبيعة الطريق، وإنما تنتظره عند نهايته إن أحسن السير.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ليست آيةٌ تخبر عن نهاية العمر فقط، بل بوصلةٌ ينبغي أن توضع في قلب كل يوم. حين يربح الإنسان أو يخسر، فيلى الله؛ حين يجتمع بأهله أو يودعهم، فيلى الله؛ حين يصح أو يمرض، فيلى الله؛ حين يذكره الناس أو ينسونه، فيلى الله. تتغير جهات الحياة القريبة، لكن الجهة الكبرى لا تتغير. وكل طريقٍ يظنه الإنسان بعيداً عن الله ينتهي به إليه، غير أن بعض الناس يصلون إليه محبين مشتاقين، وبعضهم يصلون مكرهين نادمين.

ولو استقر معنى اللقاء في القلب لانصلحت به موازين كثيرة؛ فالمظلوم لا يستسلم لليأس، لأنه يعلم أنه سيلقى رباً رأى ظلامته؛ والمحسن لا يندم على خيرٍ لم يُشكر عليه، لأنه سيجد ما قدّم؛ والمذنب لا يؤجل التوبة، لأن خطاه لا تتوقف عن الاقتراب من اللقاء؛ والمتكبر لا يغتر بما بين يديه، لأنه سيمد يده يوماً ليتلقى كتاباً لا تتحكم فيه مكانته.

كتابُ الإنسان: السيرةُ التي لا يكتبها غيره

جعلت السورة الكتاب في قلب مشهد المصير؛ لأن الإنسان سيواجه هناك الأثر الباقي من حياته. فالسنوات لا تختفي حين تمر، وإنما تتحول إلى صحيفة، والأيام لا تسقط في العدم، بل تغير شكل وجودها: كانت وقتاً نعيشه، فتصبح عملاً نلقاه. كل صباح صفحةٌ بيضاء لا تعود

بيضاء بعد المساء، وكل اختيارٍ حبرٌ لا يُستهان بلونه، وكل عادةٍ سطرٌ يتكرر حتى يصبح فصلاً من فصول النفس.

نحن نكتب دون أن نمسك قلمًا؛ نكتب العين بما تنظر، والأذن بما تستمع، واليد بما تأخذ وتعطي، واللسان بما يصلح أو يفسد، والقلب بما ينوي ويضمر. وقد ينسى الكاتب ما كتب، لكن نسيانه لا يحو السطر. وربما استيقظ الإنسان يومًا على ذنب ارتكبه في شبابه وقد غاب عن ذاكرته، فيجده حاضرًا في آثار تركها في الآخرين أو في عادةٍ عليها لغيره. فالعمل لا ينتهي دائمًا عند صاحبه؛ بعض الأعمال تنجب أعمالًا، وبعض الكلمات تظل تسافر بعد موت قائلها.

وهنا تزداد مسؤولية الكلمة والفكرة والموقف؛ فقد يكتب المرء سطرًا يقرؤه آلاف الناس، فيفتح بعضهم نافذةً إلى الحق، أو يفتح عليهم بابًا إلى الضلال. وقد يربي طفلًا على معنى، فيمتد ذلك المعنى في أجيالٍ لم يرها. إن الكاتب الذي سنلقاه ليس تسجيلًا لحركاتنا المباشرة وحدها، بل قد يحمل الآثار التي تركتها تلك الحركات ما دامت تعمل في العالم.

ومع ذلك لا تقودنا رهبة الكاتب إلى الجمود؛ فالذي أمرنا بالعمل يعلم ضعفنا، وفتح لنا باب الاستغفار. إن جمال التوبة أنها لا تضيف صفحةً حسنةً فحسب، بل تعيد تفسير الماضي كله؛ فالذنب الذي كان علامة بعدٍ قد يصبح، إذا صدقت التوبة، موضع انكسارٍ يقرب العبد من ربه. وربما أورثت العثرة صاحبها تواضعًا ورحمةً بالمذنبين، فصار بعد توبته أصلح قلبًا ممن لم ير من نفسه إلا الطاعة ثم امتلأ عجبًا بها.

والتائب لا يحو الماضي بقدرته، بل يسلمه لله، فيمحوه بعفوه، أو يبدل سيئاته حسناتٍ بفضله. يا لعظمة الرحمة: يستطيع الإنسان قبل أن يُعلق كتابه أن يعود إلى رب الكاتب، فيغير

معنى النهاية؛ ليست العبرة بأن تكون الصفحات كلها بلا خطأ، فذلك ما لا يملكه البشر، وإنما العبرة أن ينتهي الكتاب وقلب صاحبه صادق مع الله، منكسر له، راجع إليه.

بين سرورين

تضع السورة أمامنا صورتين متقابلتين: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾، و﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾. في الظاهر يتكرر السرور والأهل، لكن المسافة بينهما هي المسافة بين الجنة والنار. الأول آخر كمال سروره حتى عبر الحساب، فصار سروره خالداً؛ والثاني استنفد معنى الحياة في سرور عاجلٍ منفصلٍ عن الله، فانقلب سروره ثوراً.

ليس الدرس أن نخاصم الفرح، بل أن نظهره من الغفلة. فالإسلام لا يريد من الإنسان وجهاً عابساً أمام نعم الله، وإنما يريد له قلباً لا تخدعه النعمة عن المنعم. يأكل ويشكر، ويحب أهله ويعينهم على النجاة، ويفرح بالخير دون أن يظن أن الدنيا أعطته عهداً بالبقاء. إن المؤمن لا يرفض المسرة، لكنه يرفض أن تكون المسرة قبرا لوعيه.

والأهل في السورة ليسوا تفصيلاً عابراً؛ فالإنسان لا يريد النجاة وحده. أعمق أفراحه متصلةً بمن يحب، وأشد أحزانه مولودٌ من فراقهم أو خوفه عليهم. لذلك يعلمنا القرآن أن نرفع الحب من مجرد المشاركة في الدنيا إلى التعاون على الآخرة. ليس كافياً أن نصنع لأهلنا أياماً جميلةً إذا لم نصنع معهم طريقاً إلى لقاءٍ أجمل؛ وليس الحب أن نحكي بعضنا من آلام الدنيا فقط، بل أن نحكي بعضنا من الغفلة التي تصنع ألم الآخرة.

كم من أبٍ أتعب جسده ليورث أبناءه مآلاً، ولم يتعب قلبه ليورثهم معنى، وكم من أمٍ خافت على ولدها من جوعٍ يومٍ ولم تحف عليه من فراغ الروح، وكم من محبٍّ جامل محبوبه

في خطئه حتى لا يخسر رضاه، فعرضه لخسارة أعظم. إن الرحمة الحقيقية لا تكون قاسيةً بلا حكمة، لكنها أيضاً لا تكون رخوةً إلى حد ترك من نجهم يسرون إلى الخطر صامتين. وإذا كان أهل الإيمان سينقلبون إلى أهلهم مسرورين، فإن كل مجلسٍ أسري يمكن أن يكون مقدمةً لذلك المجلس الأبدي؛ حين يُذكر الله فيه، وتُصان الحقوق، ويعتذر المخطئ، ويرحم القوي الضعيف، ويربى الصغار على الصدق لا على الخوف وحده. البيت الذي يهين أهله للجنة ليس بيتاً خالياً من النقص، بل بيتٌ يعرف كيف يعود إلى الله كلها وقع النقص.

طبقات العمر ومدرسة التحول

ثم تضع السورة رحلة الإنسان تحت قانون: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾. ولعل أشد ما يشقى الإنسان تعلقه بمرحلة يريد لها أن تدوم، أو رفضه مرحلة يريد لها أن تنتهي قبل موعدها. لكنه لا يملك إيقاف التحول؛ فالطفل سيكبر، والشاب سيشتب إن أمهل، والقوي سيعرف الضعف، والاجتماع سيعبره الفراق، والحاضر سيصبح ذكرى.

الطمأنينة ليست في تجديد الحياة، فهذا مستحيل، وإنما في معرفة الثابت داخل المتغير. الله هو الثابت الذي لا يزول، ووعد لا يتبدل، ورحمته لا تعجزها تحولاتنا. فن جعل طمأنينته في صورته خاف الشيخوخة، ومن جعلها في صحته انهار عند المرض، ومن جعلها في الناس تبدد حين ابتعدوا، ومن جعلها في الله وجد في كل طورٍ أباً جديداً إلى معرفته.

في طور القوة يعرف الله بالشكر وتسخير القدرة في الخير، وفي طور الضعف يعرفه بالافتقار والتوكل، وفي الفقد يعرفه بالصبر، وفي العطاء يعرفه بالبذل، وفي الخفاء يعرفه بالإخلاص،

وفي الظهور يعرفه بالخوف من الفتنة. ليست هناك حالٌ تخلو من عبودية، ولا مرحلةٌ يضع فيها طريق الله؛ وإنما تتغير صورة العبادة مع تغير الطبقة.

وقد تمر بالإنسان مراحل لا يفهمها إلا بعد عبورها؛ انكسار ظنه نهاية، فإذا به يفتح له بدايةً أنقى، أو منع ظنه حرماناً، فإذا به حمايةً من طريقٍ لم ير عاقبته، أو تأخر أحرقة انتظاره، فإذا به إعدادٌ لما لم يكن مستعداً له. وليس معنى ذلك أن نجزم بالحكمة التفصيلية من كل حادثة، فبعض أسرار القدر تبقى عند الله، لكننا نوقن أن جهلنا بالحكمة لا يعني غيابها.

وحتى حين لا ينكشف معنى الألم، يبقى للمؤمن معنى العبودية داخله؛ أن يصبر من غير ادعاء القوة، وأن يشكو إلى الله لا منه، وأن يأخذ بالأسباب دون أن يعدها، وأن يحفظ قلبه من سوء الظن بربه. فليس النجاح دائماً أن يخرج الإنسان من طوره سريعاً، بل قد يكون أن يخرج الطور منه إنساناً أكثر صدقاً ونضجاً ورحمة.

السجود: الجواب الذي يقدمه الجسد

بعد أن عرضت السورة كل هذه الآيات، لم تطلب من الإنسان تنظيراً طويلاً، بل تعجبت منه أنه لا يسجد حين يُقرأ عليه القرآن. وكأن الجواب النهائي عن انشقاق السماء وكدح العمر ونشر الكآب لا يُقال باللسان وحده، بل يُقال بالجهة.

في السجود تخل عقدة الإنسان الكبرى: وهم العلو. يضع رأسه على التراب الذي خلق منه، فيتذكر أصله، لكنه لا يبقى عند التراب؛ لأن خضوعه يرفعه إلى الله. إنه يخفض بجسده ليعلو بروحه، ويتخلّى عن كبريائه ليسترد كرامته، ويعلن أن نجاته ليست في أن يكون سيداً مستقلاً في كون الله، بل عبداً حرره التوحيد من كل سيدٍ سواه.

وحين يسجد المؤمن بعد تلاوة هذه السورة، فكأنه يقول: يا رب، لقد أذنت السماء لأمرك، وأذنت الأرض لأمرك، وها أنا أريد أن يأذن قلبي لك؛ فلا تجعلني وحدي خارج هذا الانقياد الكوني. وكأن الجبهة الملامسة للأرض تعقد عهداً صامتاً: سأحاول أن يكون كفايي امتداداً لهذه السجدة، وأن تتحول عبادتي من لحظةٍ في الصلاة إلى هيئةٍ في الحياة.

فالسجود الحقيقي يمتد بعد رفع الرأس؛ يظهر في التواضع مع الناس، وفي الخضوع للحق إذا جاء على لسان من لا نخبه، وفي رد المظالم، وفي ترك الحرام حين نخلو. ومن سجد لله ثم أبى أن يتقاد لأمره في ماله وعلاقاته وخصوماته لم يأخذ من السجود إلا صورته. إن الجبهة التي عرفت الأرض بين يدي الله ينبغي أن يستحيل عليها أن تتكبر على عباده.

والقرآن الذي لا يدفعنا إلى سجد القلب قد يصبح حجةً علينا؛ لأن قربنا من ألفاظه لا يغني عن بُعدنا من مقاصده. ما قيمة أن نعرف مواضع الوقف ولا نقف عند حدود الله؟ وما قيمة أن نحسن إخراج الحروف إذا لم تُخرج الآيات من قلوبنا كبرها؟ وما قيمة أن نتأثر بمشهد الحساب ثم نظلم بعد أن نغلق المصحف؟

ما الذي نوعيه في قلوبنا؟

تأتي آية ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ لترد الإنسان من العالم الخارجي إلى مستودعه الخفي. فقد ينضبط الجسد وتبقى في القلب أوعيةٌ مملوءةٌ بالحسد والرياء والضغينة وحب الظهور. والله لا ينظر إلى ترتيب الصورة وحده، بل إلى ما جُمع خلفها.

إن القلب لا يمتلئ دفعةً واحدة، بل بما نسمح له أن يتكرر فيه. كل فكرةٍ نعيدها تصنع مجرى، وكل حقدٍ نغذيه يجد له موضعاً أعمق، وكل شهوةٍ نطلقها تسع دأثرها، كما أن كل

ذكرِ يضيء ناحية، وكل عفوٍ يحرم مساحة، وكل توبةٍ تغسل طبقة. نحن لا نملك منع كل خاطِرٍ من المرور، لكننا نملك ألا نصنع له بيتاً في داخلنا.

ولذلك فالتزكية ليست تجليل السلوك أمام الناس فقط، بل تنظيف الوعاء الذي لا يراه إلا الله. قد يترك الإنسان الانتقام عجزاً وقلبه يشتعل به، وقد يعطي لمدحه الناس، وقد يصمت وفي صمته كبرٌ لا حلم. وحده الله يعلم الوزن الحقيقي للأعمال، لأنه يرى الباعث قبل الحركة، ويرى المعركة الخفية التي سبقت القرار.

وهذا لا يدفع المؤمن إلى الوسواس أو احتقار أعماله، بل إلى الصدق. يطلب الإخلاص ويعلم أن كاله عزيز، فيستعين بالله، ويجاهد دوافعه، ولا يترك العمل الصالح خوفاً من الرياء؛ بل يعمل ويصح نيته كلها اضطربت. فالقلب ليس حجراً يستقر على حال، وإنما يحتاج إلى تعهدٍ دائم، كما يحتاج المصباح إلى زيتٍ يحفظ نوره.

وفي علم الله بما نُوعِي عزاءً لا حد له؛ فهناك آلمٌ لا نستطيع شرحها، وخيراتٌ لا نملك إثباتها، ونوايا صادقةٌ شوّرتها النتيجة أو أساء الناس فهمها. يكفي أن الله يعلم. من استراح إلى علم الله لم يستجد من الناس فهماً كاملاً، ولم يبع صدقه كي يحافظ على صورته؛ لأنه يعلم أن الحكم الأخير ليس لمن رأوا ظاهر القصة، بل لمن أحاط ببدايتها وخفاياها ونهايتها.

الأجر الذي لا يدخله الانشقاق

تختم السورة بوعيدٍ يختلف عن كل ما سبق من صور التحول: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. فالسمااء تنشق، والأرض تمتد، والشفق يزول، والليل ينقضي، والقمر يتغير، والإنسان ينتقل من طورٍ إلى طور، لكن أجر المؤمنين لا ينقطع.

كأن السورة تضع الدائم في نهاية كل ما هو متغير، لتعلم الإنسان أين يضع قلبه. ما في الدنيا جميلٌ لكنه ممنونٌ بمعنى مقطوع؛ الصحة تنقطع، والشباب ينقطع، المال ينقطع، واللقاء بالأحبة تنقطعه المسافات أو المقابر، والثناء ينقطع حين تشغل الألسنة باسمٍ آخر. وحده ما عند الله لا ينفد.

والمؤمن لا يحتقر الدنيا من أجل فنائها، بل يحسن استخدامها؛ فهي على قصرها تستطيع أن تُنتج أجراً غير مقطوع. الدقيقة تفتي، لكن الذكر الذي قيل فيها يبقى؛ والمال يخرج من اليد، لكن الصدقة تنتقل إلى ميزانٍ لا يضيع؛ والعمر ينتهي، لكن أثر العلم والرحمة والتربية الصالحة قد يستمر. إن الإيمان لا يلغي قيمة الزمن، بل يضاعفها؛ لأن اللحظة المحدودة قد تُزرع فيها ثمرةٌ أبدية.

ما أكرم الله: يهب الإنسان العمر والقدرة والهداية، ثم إذا استعمل بعض ما وهبه في طاعته، شكره عليه وأجزل ثوابه! العبد يتحرك بنعمة الله، ويهتدي بتوفيقه، ويعمل بقوته، ثم ينال أجراً غير ممنون. لا يبقى أمام هذا الفضل إلا الحياء؛ فما من طاعةٍ يفتخر بها العبد إلا والله فيها الفضل أولاً وآخرًا.

قبل أن تنشقَّ السماء

إن أعظم فقيهٍ تمنحه سورة الانشقاق للإنسان أن يبدأ انكشافه قبل انشقاق السماء؛ أن يكشف عن عيوبه لنفسه قبل أن يكشفها الكتاب، وأن يمد أرض قلبه للحق قبل أن تُمد أرض المحشر، وأن يلقي ما فيه من أثقال الذنب بالتوبة قبل أن تلقي الأرض ما فيها من الموتى، وأن يأذن لربه طوعاً قبل اليوم الذي لا يملك فيه إلا الانقياد.

فمن لم ينشق له حجاب الغفلة في الدنيا، انشقت السماء فوقه في الآخرة وهو غافل لم يستعد. ومن لم يقرأ كتابه بالحاسبة الآن، قرأه هناك حين لا تنفع القراءة. ومن لم يدع على ذنبه بالثبور في دار التوبة، ربما دعا على نفسه بالثبور في دار الجزاء. ومن لم يسجد حين كان السجود اختياراً، وقف في يومٍ تهاوى فيه كل أسباب الكبر ولا يُقبل منه عملٌ جديد.

قبل أن تنشق السماء، نستطيع أن نصلح ما بيننا وبين الله. قبل أن تُمد الأرض، نستطيع أن نرد حقاً، ونصل رحمًا، ونعتذر عن جرح، ونطفئ خصومةً طال عمرها. قبل أن يعطى الكتاب، نستطيع أن نضيف إليه صلاةً في خلوة، وصدقةً لا يعلمها أحد، وكلمةً تنقذ قلباً، وتوبةً تصعد بصدقها إلى الله.

وقبل أن ينقلب الإنسان إلى أهله مسروراً أو يذكر سروره الغافل بينهم، يستطيع أن يعيد بناء معنى الأسرة؛ أن يجعل الحب طريقاً إلى النجاة، لا تواطؤاً على النسيان، وأن يقول لمن يحبهم ما ينفعهم لا ما يرضيهم فقط، وأن يرحم ضعفهم ويتذكر أنه سيقف معهم أو بعيداً عنهم وفق ما تصنعه العقيدة والأعمال.

كل شيءٍ ما زال ممكناً ما دامت الروح في الجسد؛ فالصحيفة لم تُختم، والعودة لم تُمنع، والباب لم يُغلق. ليس مطلوباً من الإنسان أن يصلح عمره كله في لحظة، بل أن يصدق في تغيير وجهته؛ لأن المسافر إذا أدرك أنه يسير في الاتجاه الخطأ، لا يحتاج أولاً إلى قطع المسافة كلها، بل إلى أن يستدير. وقد تكون دمعةً واحدةً خرجت من قلب صادق بداية استدارة العمر إلى الله.

النداء الأخير

يا أيها الإنسان الذي يكبح منذ فتح عينيه على هذه الدنيا: لن يضيع تعبك، لكن ليس كل تعبٍ نجاة. فانظر إلى ما يستهلكك، واسأل نفسك: هل يستحق أن ألقى الله وقد أنفقت عمري فيه؟ كم من معركةٍ ظننتها مصيرية، ثم مر عليها الزمن فبدت صغيرة؛ وكم من سجدةٍ رأيتهَا صغيرة، وهي عند الله أثقل مما حسبت.

يا أيها الإنسان الذي يخشى التحولات: إنك ستركب طبقاً عن طبق، فلا تطلب من الدنيا عهداً لم تكتبه لأحد. أحبب دون عبادة، وامتك دون اغترار، وافرح دون غفلة، واحزن دون يأس. اجعل الله ثابتك حين تتحول الأشياء؛ فن كان معه الله لم يصبح فقده عدماً، ولم يصبح ضعفه ضياعاً، ولم تصبح وحدته فراغاً.

ويا من تقرأ القرآن: لا تجعل الآيات تمر عليك كما يمر الشفق على عينٍ لا ترفعه إليها. قف، وأنصت، ودع الكلام الإلهي يعيد ترتيبك. ليس السؤال كم مرةً ختمت المصحف، بل كم مرةً فتح القرآن في قلبك باباً كان مغلقاً، وكم عادةً غير، وكم كبراً كسر، وكم ظلمةً أضاء.

ويا من أثقلته صحيفته: لا تنس أن الذي يعلم بما توعي هو نفسه الذي يقبل التوبة عن عباده. لا تجعل معرفتك بذنوبك باباً إلى القنوط، بل اجعلها دليلاً إلى موضع العلاج. إن الشيطان يريدك أولاً أن تعصي، فإن عجز عن إيقانك في المعصية حاول أن يقنعك بأن العودة لا تليق بك؛ لكن الله لم يجعل التوبة للطاهرين، بل جعلها طريق المذنبين إلى الطهارة.

ويا من أتعبه كدحه في طاعة الله، ولم ير ثمرة في الدنيا: إن نهاية السورة لك؛ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. قد ينقطع ثناء الناس، وقد لا يرون ما صنعت، وقد تعبر الحياة دون أن تعطيك مكافئتها، لكن ما عند الله لا يخضع لنسيان البشر. سيأتي يومٌ ترى فيه أن المعروف الذي

ظننته ضاع كان محفوظاً، وأن الألم الذي كتمته لم يكن مجهولاً، وأن الصبر الذي لم يصفق له أحد كان يهين لك سروراً لا ينقطع.

إن سورة الانشقاق لا تتركنا أمام سماءٍ ممزقة، بل أمام قلبٍ ينبغي أن يلتئم بالله؛ ولا تتركنا أمام أرضٍ ممدودة، بل أمام طريقٍ واضحٍ إلى اللقاء؛ ولا تتركنا أمام صحيفةٍ مغلقة، بل تمنحنا فرصة الكتابة ما دما أحياء؛ ولا تتركنا في رهبة التحول، بل تدلنا على الثابت الذي تقود إليه التحولات كلها.

وسياتي اليوم الذي ينشق فيه السقف العظيم، وتحول الجبال والأرض والسماء، ولا يبقى للإنسان بيتٌ يحتمي به، ولا اسمٌ اجتماعي يستند إليه، ولا قصةٌ يرويها عن نفسه. هناك سيجد أن البيت الحقيقي كان رحمة الله، وأن الاسم الحقيقي هو ما كتبتة العبودية في صحيفته، وأن القصة الوحيدة التي تستحق أن تُروى هي كيف سار إلى ربه.

فطوبى لمن سمع النداء قبل أن ينتهي الطريق، وعلم أنه كادحٌ فاختار أن يكون كدحه لله، ورأى تغير الأطوار فلم يبع الباقي بالعار، وتلى عليه القرآن فسجد قلبه قبل جبهته، وظهر وعاءه من التكذيب والكبر، ثم لقي الله بصحيفةٍ غمرتها رحمته، فأعطي كتابه يمينه، وحوسب حساباً يسيراً، وانقلب إلى أهله مسروراً.

اللهم إذا انشقت السماء، ومدّت الأرض، وألقت ما فيها وتخلّت، فاجعلنا ممن أذنت قلوبهم لك في الدنيا طوعاً، وخضعت لأمرك حبّاً وخشيةً. اللهم بارك كدحنا، وصح وجهتنا، ولا تجعل أعمارنا تنقضي فيما لا يبقى، وارزقنا توبةً تحو ما أسلفنا، وعملاً صالحاً ترضاه، وقلباً إذا قرئ عليه القرآن خشع وسجد.

اللهم آتِنَا كِتَابَنَا بِأَيْمَانِنَا، وحاسبنا حساباً يسيراً، واستر عيوبنا يوم العرض، ولا تناقشنا فيما تعلمه من تقصيرنا، وانقلنا من خوف الموقف إلى أمان رحمتك، ومن وحشة القبور إلى أنس لقاءك، ومن فراق الأهل إلى اجتماع لا يتسلل إليه الموت، ومن كدح الدنيا إلى سرور لا ينقطع.

اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واكتب لنا بفضلك أجراً غير ممنون؛ فإن أعمالنا محدودة، ورحمتك لا حد لها، وإن أعمارنا منقطعة، وفضلك لا ينقطع، وإننا كادحون إليك لا محالة، فلا تجعل نهاية كدحنا إلا رضاك، ولا ختام طريقنا إلا الجنة والنظر إلى وجهك الكريم، من غير تشبيه ولا تكييف، في دار كرامتك ورحمتك.

وبهذه الخاتمة الجامعة، يكون كتاب التدبر في سورة الانشقاق قد اكتمل من مقدمته المنهجية إلى آخر آيات السورة وخاتمته، والحمد لله رب العالمين.